الدكتور
بسيوني عبد الفتاح فيود

بلاغة تطبيقية

دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص

بلاغة تطبيقية

دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص

تاليف

الدكتور

بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد ~~المساعد~~

بكلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

مطبعة الحسين الإسلامية

٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر

تليفون ٩١٩٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير ، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وآتاه جوامع الكلم ، فجاهد ـ ﷺ ـ فى سبيل تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، ونصح الأمة ، والدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ... أما بعد

فدارس البلاغة فى حاجة الى أن ينظر فى التعبيرات الجيدة ، والأساليب الراقية ، ويتأمل هذه التعبيرات ، وتلك الأساليب ، ويصل بل ويدرك مواطن الجمال بها ، فينمو بذلك ذوقه ، وترقى أحاسيسه وتسمو مشاعره ..

ولو وقف الدارس عند حد القاعدة والضوابط البلاغية ، ولم يتجاوزها الى النصوص الرفيعة ، ليتعرف من خلال هذه النصوص على مسائل البلاغة ، لجف ذوقه ، وتبلدت أحاسيسه ، وانحطت مشاعره ...

ولذا رأينا أن نحرك الدارس البلاغى ، ونوجهه نحو النصوص السامية ، والتعبيرات الراقية ، ليتعرف على مسائل البلاغة بها ، ووضعنا له فى هذا المؤلف :

١ ـ جملة من الآيات القرآنية الكريمة .

٢ ـ عددا من أحاديث النبى ﷺ .

٣ ـ نصوصا من الشعر العربى الجيد .

وغايتنا من هذا المؤلف أن يقف الدارس البلاغى على ما فى هذه النصوص من المزايا والأسرار والمسائل البلاغية ، فهو بمثابة تطبيقات لما يدرسه الدارس من مقررات بلاغية ..

وما من ريب فى أن الدارس عندما يقف على المسائل والأسرار والمزايا البلاغية من خلال هذه النصوص ، فسيكون لها أثر ووقع فى نفسه ، وتقر بذلك الضوابط البلاغية وتترسخ فى أعماق الأنفس ..

فالله عز وجل نسأل أن يحقق هذا المؤلف غايته المرجوة ، وأن ينتفع به دارسو العلم ومحبو المعرفة ، وأن يجزينا به خير الجزاء ، ويهدى إلى سواء السبيل ، إنه خير مسئول ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

المؤلف

بسيونى عبد الفتاح فيود

~~الأستاذ المساعد فى جامعة الأزهر~~

أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

القسم الأول

من هــدى القــرآن الكريم

١ ـ من أول ســورة (البقــرة) الى قــوله تعــالى : « **ولو شــاء الله لذهب بسمعهم وابصــارهم إن الله على كل شىء قدير** » ٠

الآيات : ١ ـ ٢٠

٢ ـ من قوله تعــالى فى ســورة (آل عمران) : « **يأيهــا الذين آمنوا لا تأكلوا الــربا أضعافا مضــاعفة** » إلى قوله تعالى : « **ومن يرد ثــواب الدنيــا نؤته منهــا ومن يرد ثــواب الآخــرة نؤته منهــا وسنجــزى الشــاكرين** » ٠

الآيات : ١٣٠ ـ ١٤٥ ٠

٣ ـ من أول ســورة (لقمــان) إلى قوله تعــالى : « **هــذا خلــق الله فأورنى مــاذا خلــق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** »

الآيات : ١ ـ ١١

١

قال تعـالى : « آلم • ذلك الكتـاب لا ريب فيـه هـدى للمتقين • الذين يؤمنـون بالغيب ويقيمـون الصلاة وممـا رزقنـاهم ينفقـون • والذين يؤمنـون بمـا أنزل إليـك وما انـزل من قبـلك وبالآخرة هـم يوقنـون • أولئـك على هـدى من ربهم وأولئـك هم المفلحـون • إن الذين كفـروا سـواء عليهم أانذرتهم أم لم تنـذرهم لا يؤمنـون • ختم الله على قلوبهم وعلى سـمعهم وعلى ابصـارهم غشـاوة ولهم عـذاب عظيم • ومـن النـاس من يقـول آمنـا بالله وباليـوم الآخـر ومـا هم بمؤمنـين • يخـادعون الله والذين آمنـوا ومـا يخـدعون إلا انفسـهم ومـا يشـعرون • فى قـلوبهم مـرض فـزادهم الله مرضـا ولهم عـذاب اليـم بمـا كانوا يكـذبون • وإذا قيـل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنمـا نحن مصـلحون • الا إنهم هم المفسـدون ولكن لا يشـعرون • وإذا قيـل لهم آمنـوا كمـا آمن النـاس قالوا انؤمن كمـا آمن السـفهاء الا إنهم هم السـفهاء ولكن لا يعلمـون • وإذا لقـوا الذين آمنـوا قالـوا آمنا وإذا خلوا إلى شـياطينهم قـالوا إنـا معكم إنمـا نحن مستهزءون • الله يسـتهزىء بهم ويمـدهم فى طغيـانهم يعمهـون • أولئـك الذين اشـتروا الضـلالة بالهـدى فمـا ربحت تجـارتهم ومـا كانوا مهتدين • مثلـهم كمثـل الذى اسـتوقد نـارا فلمـا اضـاءت مـا حـوله ذهب الله بنـورهم وتركهم فى ظلمـات لا يبـصرون • صـم بـكم عمى فهم لا يرجعـون • أو كصـيب من السـماء فيـه ظلمات ورعـد وبـرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصـواعق حـذر المـوت والله محيط بالكافرين •

يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شئ قدير »(١) ٠

تتناول هذه الآيات الكريمة بيان صفات المتقين ، الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله ، وما أعد لهم من جزاء ، وقد جاء الحديث عن المتقين ، وتجلية صفاتهم ، وبيان جزائهم ، عقب ذكر القرآن الكريم والإشارة إلى كماله ، وأنه من عند الله لا ريب فيه ٠

وبعد قصة المؤمنين تأتى قصة الكافرين ، فتبرز الآيات أنهم أصروا على الكفر والعناد والمكابرة ، وأنه قد ختم على قلوبهم وسمعهم وجعل الله على أبصارهم غشاوة ، فأنى لهم أن يؤمنوا ، وتختتم قصتهم بأن الله قد أعد لهم عذابا عظيما « **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور** »(٢) ٠

ثم تأتى قصة المنافقين فتبرز الآيات الكريمة أحوالهم وتجلى مواقفهم المريبة ، وصفاتهم التى جبلوا عليها ، وتذبذبهم « **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** »(٣) وتبين بوار تجارتهم ، وتضرب الأمثال التى توضح أحوالهم ، وتعاميهم عن الحق ، أما جزاؤهم فهو العذاب الأليم ، لأن الله تعالى محيط بهم ، ويستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ٠٠

والذى يعنينا فى هذه الآيات الكريمة ، ونريد إظهاره وبيانه هو الجانب البلاغى ، نريد تجليته وإيضاحه ، والكشف عن الأسرار والمزايا التى تكمن وراء التراكيب فى الآيات الكريمة ، ونضع يد

---

(١) سورة البقرة : ١ ـ ٢٠ ٠
(٢) سبأ : ١٧ ٠
(٣) النساء : ١٣٤ ٠

القـارىء على تلك المزايا ، ونوجـه فكره وعقله نحوها ، فتتربى لديه ملكة التـذوق والتـأمل وحسن الادراك ..

بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى : (آلم) وقـد قال بعض العلمـاء فى شأن هذه الفواتح : « لكل كتاب سر ، وسر القـرآن فواتحه »(٤) .

وذكر الزمخشرى أن هذه الفواتح أسـماء لحروف المعجم ، وأنهـا من قبيل المعـربة ، وسكون أعجـازها عند الهجاء لأجل الوقف ، وعلل افتتاح السـور بها بالإشـعار بأن القـرآن الكريم ليس إلا كلمات عربية معروة التراكيب ، من مسميات هـذه الألفاظ ، فهى كالإيقـاظ وقـرع العصـا لمـن تحدوا بالقرآن ، وبغـرابة نظمه ، وكالتحريك للنظر فى أن هـذا المتـلو عليهم وقد عجـزوا عنه جميعا ، كلام منظـوم ، من عين مـا ينظمون منـه كلامهم(٥) .

وعندما نتأمل هـذه الفواتح فى القـرآن الكريم نجـد أن ما ورد بهـا أربعـة عشر حـرفا من حـروف الهجاء ، فهى نصف حروف الهجاء وقد اشتملت على أنصـاف أجناسها ، ففيها نصـف الحروف المهموسة ، ونصف المجهـورة ونصف الشـديدة ، ونصف الرخـوة ، الى آخـر هذه الأجنـاس ، وباستقراء كلم القـرآن وتراكيبه ، وجـد أن الحروف التى لم ترد فى فواتح سـوره قليلة بالنسبة لتلك التى وردت بهـا ، ونحن نعـلم أن معظم الشىء وأكثره ينزل منزلة كله ، فكأن الله عز وجل قد عدد على العرب الألفـاظ التى منها تراكيب كلامهم ، وذلك لتبكيتهم ، وإلزام الحجة اياهم ، فسبحان من لطف كتابه ، ودقت في كل شىء حكمته(٦) .

وخلاصـة القول في هـذه الفواتح ، أن ابتـداء السور وتصديرها

---

(٤) تفسير الطبرى ٢٠٩/١ .
(٥) ارجع الى الكشاف ٨٣/١ ، ٩٣ ، ٩٦ .
(٦) انظر الكشاف ١٠٠/١ - ١٠٣ .

بها ، يجذب أنظار المعرضين عن القرآن اليه ، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة فى تخاطبهم ، ينتبهون إلى ما يلقى إليهم ، ويتلى عليهم من آيات بينات ..

كما أن فى هذه الحردف التى استخدمت فى الفواتيح تنبيها على إعجاز القرآن الكريم ، فانه منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، فعندما يعجزون عن الاتيان بمثله ، وهم أهل البيان ، وأرباب الفصاحة فإن ذلك يعد أعظم برهان على إعجازه ..

وفى قوله عز وجل : « **ذلك الكتاب** » استخدم اسم الاشارة الموضوع للبعيد (ذلك) للدلالة على التعظيم وبعد المنزلة ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، والاشارة الى القرآن الكريم ، وأسلوب (ذلك الكتاب) أسلوب قصر طريقه تعريف المسند بأل التى للجنس ، كما يقال : ذلك الرجل ، قصرا لصفة (الشجاعة والرجولية) على اسم الاشارة ، أى : على المشار اليه ، اذ لا يخفى عليك أن المقصور فى هذا الطريق هو المقترن بأل ، والمقصور عليه هو الخالى منها ، والمعنى : ذلك هو الكتاب الكامل ، فهو قصر للكتاب على (ذلك) المشار به الى القرآن ، أى : قصر لصفة الكمال على القرآن لا تتعداه الى غيره من الكتب ، قالوا : الحصر إما على وجه الحقيقة ، فالقرآن هو الكتاب الكامل دون غيره ، وإما على وجه المبالغة لا ةحقيقة ، وهذا ليس بشىء ..

فالأولى أن الكمال مقصور على القرآن قصرا حقيقيا ، وهذا لا يقدح فى كتب الله الأخرى ، فيقال بأنها ناقصة ، لأن هذا النقصان انما هو بالنسبة للقرآن ، فما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص(٧).

---

(٧) انظر الكشاف ١/١١١ .

وجملة (ذلك الكتـاب) جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، أو متعلقة بمـا قبلها (آلم) خبر له ، والأولى جعلهـا جملة مستقلة ، مبينة لمـا قبلهـا ، ويكون قوله : (آلـم) خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : هذه آلم ، تنبيهـا للاعجاز ، ولفت الأنظار الى القرآن كما بينا ..

وقوله تعـالى : (**لا ريب فيـه**) نفى للريب عن القرآن ، وإثبـات أنه حق وصـدق ، لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعـون ، ولم يقدم الظـرف (فيـه) على الريب ، كما قدم فى قوله تعالى : « **لا فيهـا غـول ولا هم عنهـا ينزفـون** »(٨) لأنه لم يقصـد الى الحصر ، إذ تقـديم الظرف فى سـورة الصافات أفاد الحصر ، أى : نفى الغـول عن خمـر الجنـة وإثباته لخمور الدنيا ، فخمـور الدنيـا تغتـال العقول ، وخمر الجنـة تخلو من هـذا ، ولذا قـدم الظـرف (لا فيها غـول) لافادة الحصر ..

أمـا نفى الريب عن القـرآن فـلم يقصد فيـه إثبات ريب للكتب الأخرى ، بل قصـد الى تنزيه القـرآن عن الريب والشـك دون تعريض بغيره ، ولو قيـل : لا فيـه ريب ، لأثبت ذلك أن كتب الله الأخرى فيها ريب ، وحاشـا لكتب الله تعـالى أن يكون فيها ريب .

وجعل (فيـه) خبرا للريب هو المشهور ، ويصح جعلها خـبرا مقـدما لقوله تعالى (هـدى) وعندئذ يقـدر خبر محـذوف للريب ، ويكون المعنى : لا ريب فيـه . فيـه هـدى للمتقين ، وعلى المشهور تكون (هـدى) خبرا حـذف مبتدؤه ، والتقـدير : لا ريب فيه هو هـدى للمتقين ، وحـذف المبتدأ ينبىء بعظمة الهداية ، وكمالها ، كما يدل على ذلك تنكير (هـدى) ومجيئه مصـدرا فلم يقـل : هـاد ، وإنما قال (هـــدى) .

---

(٨) الصافات : ٤٧ .

ومعنى كونه هدى للمتقين ، والمتقون مهتدون ، أن فيه زيادة هدى لهم ، كما يقال للعزيز : أعزك الله ، وللكريم : أكرمك الله ، أى : زادك عزا وكرامة ، يراد بذلك طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيهما ، واستدامته لهما .

أو أن المراد بالمتقين : الضالون الذين شارفوا على الهدى ، كما فى قول النبى - ﷺ - : « من قتل قتيلا فله سلبه » فقد سمى المشارف للقتل قتيلا ، ومنه قوله تعالى : « **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** »(٩) أى : صائرا الى الفجور والكفر ، والمعى عندئذ : هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال ، ففى المتقين على هذا المعنى مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيئول اليه أمر الضالين .

ولعل فى العدول الى المجاز تحقيقا لفائدة جليلة وغرض عظيم ، وهو تصدير السورة الكريمة بالتقوى ، وذكر أولياء الله والمرتضين من عباده ..

وقد فصل بين هذه الجمل : « **الم ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين** » لكمال الاتصال ، فهى جمل يؤكد بعضها بعضا ، ويأخذ بعضها بعنق بعض ، لتنزيه الكتاب العزيز ، وتأكيد كماله ، وبلوغه الغاية فى الهداية .

يقول صاحب الكشاف : « والذى هو أرسخ عرفا فى البلاغة أن يقال إن قوله « الم » جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و « ذلك الكتاب » جملة ثانية ، و « لاريب فيه » ثالثة ، و « هدى للمتقين » رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا ، من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية ، آخذا

---

(٩) نوح : ٢٧ .

بغضها بعنق بعض ... بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريرا لجهة التحدى ، وشدا من أعضاده ، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة ، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله ، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . »(١٠) .

وقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » بيان للمتقين وتجلية لهم ، وقد فصل عما قبله لشبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البيانى ، لأنه بمثابة جواب لسؤال تضمنته الجملة السابقة ، وكأن سائلا سأل ، من هم هؤلاء المتقون الذين جعل القرآن لهم هدى ؟ فجاء الجواب هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة(١١) .

والجار والمجرور « بالغيب » إما متعلق بالإيمان صلة له ، أو متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير « يؤمنون » ، والمعنى : يؤمنون متلبسين بالغيب ، حالة كونهم غائبين عن المؤمن به ، كما فى قوله تعالى : « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون »(١٢)

---

(١٠) الكشاف ١/١٢١ ، ١٢٢ .

(١١) هذا وقد جعل بعضهم « الذين » صفة للمتقين موصولا به ، أو منصوبا على المدح ، والتقدير : أعنى الذين يؤمنون ، وما ذكرناه على جعل « الذين » خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : هم الذين يؤمنون ، والجملة عليه بيان لما قبلها كما أوضحنا ، ويصح أن يكون « الذين » مبتدأ خبره « أولئك على هدى .. » .

(١٢) الأنبياء : ٤٩ .

وقوله تعالى : « **ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب** »(١٣) . فإن جعل صلة للإيمان : فمعنى الغيب : الغائب الذى هو ضد الشهادة ، كالايمان بالله وصفاته وانبيائه ، والبعث والنشور والحساب والوعد والوعيد ، وغير ذلك مما غيب عنا وأمرنا بالإيمان به ..

وإن جعل حالا ، كان الغيب بمعنى الغيبة والخفاء ، أى : يؤمنون حال الغيبة ، كما يؤمنون فى الحضور ، فايمانهم ايمان صادق ، وليس كايمان الذين نافقوا ..

وقوله تعالى : « **ويقيمون الصلاة** » إقامة الصلاة تحتمل أربعة معان :

١ ـ تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها ، من قولهم أقام العود ، إذا قومه أى : سواه وأزال عوجه ...

٢ ـ الدوام والمحافظة عليها ، كما فى قوله تعالى : « **الذين هم على صلاتهم دائمون ... والذين هم على صلاتهم يحافظون** »(١٤) من قامت السوق وأقامها اذا نفقت ، فتتوجه اليها الرغبات ، ويتنافس فيها المحصلون . وعلى هذين المعنيين ففى « يقيمون » استعارة تبعية ، حيث استعيرت الإقامة من تسوية الأجسام ، لتسوية المعانى ، كتعديل أركان الصلاة وحفظها من وقوع زيغ فى فرائضها ، على ماا هو حقها ، ثم اشتق من الإقامة « يقيم » بمعنى : يعدل أركان الصلاة ...

---

(١٣) يوسف : ٥٢ .
(١٤) المعارج : ٢٣ ، ٣٤ .

ولا يخـفى علينـا أن « الآخـرة » صـفة لموصـوف مـحـذوف ، والتقـدير : وبالدار الآخـرة هـم يوقنون ، قــال تعــالى : « **تلك الدار الآخـرة نجعلهـا للذين لا يريدون عـلوا فى الأرض ولا فسـادا** »(١٧) وهى من الصفات الغالبـة ، وكـذلك الدنيـا .

« أولئـك على هـدى من ربهـم وأولئـك هـم المفلحـون » ..

التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد « أولئك » يدل على التعظيم وعـلو المكانة ، تنزيلا للبعـد المعنوى منـزلة البعـد الحسى ، وجمـلة « أولئك على هـدى » إمـا خبـر للذين يؤمنون بالغيب ، إن جعـل « الذين يؤمنون بالغيب » مبتـدأ ، أو خبـر للذين يؤمنون بمـا أنزل اليـك ، على سـبيل التعريض بأهـل الكتاب الذين لم يؤمنوا وهـم ظـانون أنهـم على الهـدى ، وطامعون فى نيـل الفـلاح ..

ويصـح أن يكـون « الذين يؤمنون بالغيب » تابعـا للمتقين - كمـا بينـا - وأن يكـون « أولئـك عـلى هـدى » مستأنفا استئنافا بيانيـا ، كأنه قيـل مابال المستقلين بهـذه الصفات هل اختصوا بالهدى والفـلاح ؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غيـر مستبعد أن يفـوزوا دون النـاس بالهـدى عاجـلا ، وبالفـلاح آجـلا ..

واسـم الإشارة « أولئك » قـد حسـن موقعه هنـا ولطف ، إذ يؤذن بأن ما يـرد عقبـه من جـزاء ، فالمذكورون قبـله أهـل لـه ، وجديرون باكتسابه ، من أجـل الخصال التى عددت لهـم ، وهذا شأن اسـم الإشـارة عندما يـرد بعـد تعـديد صفات وخصال ، فيؤذن بأن المشـار اليـه جـدير باستحقاق ماياتى عقيبـه من جـزاء ، من أجـل تلك الخصـال المتقدمة ، ومن ذلك قـوله تعـالى فى سورة « المؤمنون »

---

(١٧) القصص : ٨٣ .

« أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هـم فيها خالدون »(١٨) وقوله عز وجل فى سورة آل عمران : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنـات .. »(١٩) ، وعـد الى السورتين وتامـل ما عدد من صفات ، وما عقب بـه من جـزاء ليتضح لك صـدق ما قلنـاه ..

وفى قـوله تعالى « على هـدى من ربهـم » استعارة تبعيـة فى الحـرف « عـلى » حيث شـبه تمسـك المتقين بالهـدى وتمكنهم منـه باستعلاء الراكب على ما يركبه بجـامع التمكن والاستقرار ، ثم استعير لـه الحـرف الموضوع للاستعلاء ، كمـا فى قـوله تعـالى : « ولأصلبنكم فى جـذوع النخـل »(٢٠) حيث شـبه تمـكن الجـذع من المصـلوب باستقرار المظـروف فى الظـرف بجـامع الثبـات ، ثم استعير لـه الحـرف الموضوع للظرفية ..

واستخدام الحـرف « عـلى » فى التمثيل لتمكن المتقين من الهدى واستقرارهم عليـه ، يشعر بتكريمهم وتعظيمهم ، حيث شبهت حالهم بحـال من اعتـلى الشىء وركبـه ؛ سموا ورفعـة ..

وتامـل قـوله تعـالى : « وإنـا أو إياكـم لعـلى هـدى أو فى ضـلال مبـين »(٢١) فستجد عند التـامل أن المهتـدين قـد صـوروا تصـوير تكـريم وتعظيـم ، فهـم على هـدى قـد اعتـلوه ، وتلك مكانة سـامية ، أمـا الضالون فهـم منغمسون فى الضـلال ، يتخبطون فيـه ، وتلك منـزلة هابطـة ، ومكانة ساقطة ، تمثـل هبوط الضالين ، وانغماسهم فى الضـلال المبـين ، تحقيرا لهـم وحطـا من شانهم ..

---

(١٨) المؤمنون : ١٠ ، ١١ .
(١٩) آل عمران : ١٣٦ .
(٢٠) طـه : ٧١ .
(٢١) سـبأ : ٢٤ .

وتنكير « هـدى » للدلالة على التعظيم ، وبيـان أنـه ضـرب مبهـم لا يبـلغ كنهـه ، ولا يحـاط بـه ، ولذلك وصـف بقوله « من ربهـم » مبالغـة فى تعظيمه وإبهـامه ..

وقـوله تعـالى : « وأولئك هـم المفلحون » أعيـد اسم الاشارة « أولئك » فـلم يقـل : وهـم المفلحون مثـلا للدلالة على اختصاصهم بكـل واحـدة من الصفتين « الهـدى » و « الفـلاح » على حـدة ، لتكون كـل منهمـا مميزة لهـم عمـن عداهم ، وللإشعار بأن الصـفة الواحـدة منهمـا لـو انفردت لكفت مميـزة لهـم على حيالها ..

وتـدل الواو فى قـوله : « وأولئك » عـلى اختـلاف الخبرين وتميزهما ، وذلك عكس قوله تعـالى فى شـان الكفـار « أولئك كالأنعام بـل هـم أضل أولئك هـم الغافلون »(٢٢) فـان الخبرين هنا متفقان ، اذ التسجيل عليهـم بالغفـلة ، وتشبيههم بالبهـائم شىء واحد ، فالجملة الثانية مقـررة لمـا فى الأولى ، ومؤكـدة لمعناها ، ولـذا فصل بينهمـا لكمـال الاتصـال .

وأسلوب « أولئك هـم المفلحون » أسلوب قصـر طريقة تعـريف الخبـر بـأل التى للجنس ، فالفـلاح مقصور عليهم ، لا يتعداهم الى غيرهم ، قصـر صـفة على موصوف ، و « هـم » ضمير فصل مؤكـد للاختصـاص ..

ولا يخفى عليـك أن الوصل بين جملتى : (أولئـك علي هـدك من ربهم وأولئـك هم المفلحون) للتوسط بين الكمالين مع عـدم المانع ، حيث اتفقتـا فى الخبرية لفظا ومعنى ، ووجـدت المناسبة المصححـة للوصـل بينهما .

---

(٢٢) الأعراف : ١٧٩ .

وقد أبرزت الآية الكريمة اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد ، وأكدت ذلك بطرق شتى ، ووسائل مختلفة ، التعبير باسم الإشارة (أولئك) وتكراره ، وتعريف المفلحين بأل ، وتوسط ضمير الفصل (هم) بينه وبين (أولئك) والغرض من ذلك تجلية منزلتهم وبيان مراتبهم ، والتبصير بها ، والترغيب والحث على العمل لنيل هذه المراتب السامية .

(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)
وبعد ذكر قصة المتقين ، وتجلية خصالهم ، وبيان أن الكتاب هدى لهم خاصة ، عقب بذكر الكفار ، وقد قطعت قصة الكفار عن قصة المتقين فلم تعطف عليها ، لأن بين القصتين تباينا فى الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعطف ، لأن الأولى مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين ، والثانية مسوقة لبيان صفات الكفار ..

ونجد أن الخبر عن الكفار قد جاء مؤكدا بإن : (إن الذين كفروا) ويرجع هذا التأكيد الى أن المخاطب وهو النبى - ﷺ - كان حريصا على هدايتهم ، متفانيا فى دعوتهم وإنذارهم ، متطلعا إلى استجابتهم وإيمانهم ، فنزلت حالته - ﷺ - هذه منزلة حال المتردد فى استمرارهم على الكفر وعدم الإيمان واستواء الإنذار وعدم الإنذار لديهم ، ولذا جاء الخبر مؤكدا بإن ، ثم جاء التعليل (الاستئناف البيانى) فى الآية الثانية (ختم الله) وكأن المخاطب قد سأل : لماذا يستوى الإنذار وعدمه لديهم ؟ ولم لا يؤمنون ؟ فجاء الجواب (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وهذا التعليل ينبىء بمدى حرص النبى - ﷺ - على هداية الكفرة ، وتطلعه إلى استجابتهم وإيمانهم ..

وقد جاء المسند اليه اسم موصول حيث تومىء جملة الصلة

(كفروا) إلى وجه بناء الخبر ، وهو استواء الإنذار وعدمه لديهم وعدم إيمانهم ، كما نقول : الذى اجتهد طول العام نجح ، فجملة الصلة (اجتهد طول العام) أومأت الى وجه بناء الخير (نجح).

فى قوله تعالى : « **أأنذرتهم أم لم تنذرهم** » ولى الهمزة الفعل لانه هو المستفهم عنه ، وعندما تكون الهمزة للتصور فانه يليها المستفهم عنه ، يقال : أأكرمت أم أهنت ؟ فى الاستفهام عن **الفعل** ، ويقال : أأنت أكرمت أم زيد ؟ فى السؤال عن الفاعل ، **ويقال : أزيدا** أهنت أم عمرا ؟ فى السؤال عن المفعول ... وهكذا ..

وقد يكون الاستفهام عن الفعل ويلى الهمزة غيره للمبالغة ... متى يكون ذلك ؟(٢٣) ؟

ولا يخفى علينا أن الهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء ، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام ، كما تأتى صيغة النداء ولا يراد بها النداء وإنما يراد بها التخصيص نحو : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة(٢٤) ...

---

(٢٣) يكون ذلك اذا كان للفعل فاعل محدد أو مفعول أو ظرف ليس للفعل سواه بمعنى أنه لا يقع إلا من هذا الفاطل ، أو لا يقع الا على هذا المفعول ، أو لا يقع الا فى هذا الظرف ، فعندئذ يلى الهمزة أو يليها ويعطف على ما وليها بأم ، ذلك المحدد الذى ليس للفعل سواه ، ويكون المراد الاستفهام عن الفعل مثال ذلك : أفى ليل وقع هذا أم فى نهار ؟ وقوله تعالى : **(آلذكرين حرم أم الأنثيين**) وقوله عز وجل (**أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله**) وما من ريب فى أن انتفاء الفاعل أو المفعول أو الظرف الذى ليس للفعل سواه يكون أبلغ فى انتفاء الفعل وإنكاره .. يراجع دلائل الإعجاز ص١٤٧ .

(٢٤) انظر الكشاف جـ ١ ص ١٥٢ .

وفصلت جملة (لا يؤمنون) عن الجملة قبلها (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) لكمال الاتصال ، لأنها مؤكدة لها ، ومبينة لاستواء الإنذار وعدمه فى عدم الإجداء ، ولك أن تجعل جملة (لا يؤمنون) خبر إن ، والجملة قبلها اعتراض ، والأول وهو جعلها تأكيدا وبيانا للاستواء فى عدم الجدوى أولى ، لأن استواء الإنذار وعدمه فى عدم الإجداء أقوى وأظهر من نفى الإيمان فى الدلالة على الغرض المسوق له الكلام وهو إصرار هؤلاء الكفرة على العناد واستمرارهم وبقاؤهم فى الكفر ، فجعله عمدة فى الكلام أولى من جعله اعتراضيا مستغنى عنه(٢٥) ..

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار من باب المجاز ، فهما إما من قبيل الاستعارة التصريحية ، أو من قبيل الاستعارة التمثيلية ، بيان ذلك :

أن لفظ (الختم) استعير من ضرب الخاتم على الشىء ليمنع نقشه نفوذ شىء إليه ، لإحداث هيئة فى القلب والسمع مانعة من خلوص الحق اليهما ، فقد استعير الختم المحسوس لأمر معقول وهو احداث تلك الهيئة المانعة ، ووجه الشبه هو المنع فى كل ، ثم اشتق من الختم

---

(٢٥)فى قوله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) وجهان من الإعراب ، أن يعرب (سواء) خبرا مقدما و (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) فى موضع الابتداء والمعنى سواء عليهم انذارك وعدمه ، ولا يقال كيف يخبر بالاسم عن الفعل والفعل لا يكون إلا خبرا ؟ لأن هذا من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ الى جانب المعنى ، والوجه الثانى أن يكون (سواء) اسما بمعنى الاستواء فهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، و (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) مرتفع به على الفاعلية والمعني : ان الذين كفروا مستو عليهم انذارك وعدمه ..

(ختم) بمعنى : أحدث هيئـة فى القلب والسمع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيـة فى الفعل ..

وكذا استعير لفظ (الغشاوة) من معناه الأصلى لحالة فى أبصارهم مقتضية لعـدم اجتلائها آيات الله ودلائله ، فهو استعارة تصريحية أصلية من محسوس لمعقول بجامع المنـع فى كل ، وبذا يكون فى (خـتم) استعارة تصريحية تبعيـة ، وفى (غشاوة) استعارة تصريحية أصلية ..

ويصـح أن يكون المجـاز فى الموضعين من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبهت حال قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم مع الهيئة الحادثة فيهـا المانعـة من الانتفـاع بها بحال أشـياء معـدة للانتفاع بها فى مصـالح مهمـة مع المنع عن ذلك بالختم والتغشية ، ثم استعير للمشبه اللفظ الدال على المشـبه به ، فكل طـرف من طرفى التشبيه مركب من عـدة أمور ، والجامع أمـر عقلى منتزع من تلك الأمور وهو عـدم الانتفاع بمـا أعـد للانتفـاع بسبب عروض مانع ، ومثال الاستعارة التمثيلية فى أقوالهم : أراك تقـدم رجلا وتؤخر أخرى ، يقال ذلك للمتردد فى الأمر ، وأراك تنفخ فى رمـاد وتضرب فى حـديد بارد وتخـط على المـاء ، ويقـال هـذا لمن يبذل جهـده فى عمل لا يثمر شيئا ..

وعندما نتأمل الآية : (**ختـم الله على قلوبهم وعلى سـمعهم وعلى أبصـارهم غشاوة**) ونمعن النظـر فى بنائها نجد ما يلى :

أولا : الجـار والمجرور فى الموضعين الأول والثانى يتعلقـان بالفعل (ختم) وأمـا فى الموضع الثالث فهو خبر مقدم و (غشـاوة) مبتـدأ مؤخرًا هذا على قـراءة رفع (غشارة) وأمـا على قراءة نصبها فهـو مفعول فعـل محذوف تقديره : جعـل أو أحـدث ، والجـار والمجـرور يتعلق به ، فالواو الأولي عطف للظرف علي الظرف قبله ، والواو الثانية

عطف للجملة على الجملة ، ولا يصح العكس للأمور الآتية :

١ - التصريح بالختم على السمع وخص البصر بالغشاوة فى قوله تعالى: **« افرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ٠٠ »**(٢٦) والقرآن يفسر بعضه بعضا ٠

٢ - أن القلوب والسمع لما كانت مكنونة مستترة ، كان استعمال الختم لها أولى ، والأبصار لما كانت بارزة وإدراكها متعلق بظاهرها كان استعمال الغشاوة لها أليق ٠٠

٣ - أن إدراك القلب والسمع من جميع الجوانب ، ولذا كان الأولى جعل المانع فيهما الختم الذى يمنع من جميع الجهات ، وأما إدراك البصر فمن جهة المقابلة فقط ، ولذا خص المانع فيه بالغشاء الذى يكون بين الرائى والمرئى ٠٠

ثانيا : تكرار حرف الجر (على) فى قوله تعالى : (**وعلى سمعهم**) يدل على شدة الختم فى الموضعين ، لأن ملاحظة الجار فى كل منهما تقتضى أن يلاحظ معنى الفعل مع كل من القلوب والسمع ، فكأن الفعل (ختم) قد ذكر مرتين ٠٠

ثالثا : جمعت القلوب والأبصار وأفرد السمع لأن السمع فى أصله مصدر والمصادر لا تجمع ، فلمح الأصل ، يدل على ذلك جمع الأذن فى قوله تعالى « **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر** ٠٠٠ »(٢٧) ، ولذا يقدر مضاف محذوف ، أى : وعلى حواس سمعهم ٠٠٠

---

(٢٦) الجاثية : ٢٣ ٠
(٢٧) فصلت : ٥ ٠

كما أن فى إفراد السمع وجمع القلوب والأبصار تفننا فى القول ، وإشارة إلى أن مدركات السمع نوع واحد ، وأن مدركات كل من القلوب والأبصار أنواع مختلفة ..

رابعا : تنكير (غشاوة و (عذاب) للنوعية ، والمعنى أن على ابصارهم نوعا من الأغطية غير ما يتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامى عن آيات الله ، لهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، وقيل ان التنكير فى الموضعين للتعظيم ، والأول أرجح لاستفادة التعظيم من صريح الوصف (ولهم عذاب عظيم) ..

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

الواو فى قوله تعالى : « **ومن الناس** » واو الاستئناف أو واو القصة وهى الواو التى تعطف مجموع جمل متعددة مسوقة لغرض على مجموع جمل أخرى مسوقة لغرض آخر ، ويشترط فى هذا العطف التناسب بين غرضى المجموعين دون التناسب بين آحاد الجمل الواقعة فى كل مجموع ، بخلاف واو العطف التى تصل بين جملتين ، فانها تتطلب المناسبة المصححة لعطف الجملة الثانية على الأولى ..

ولام التعريف فى (الناس) إما للعهد الذكرى ، فيكون المراد بهم : الذين كفروا المار ذكرهم ، كأنه قيل : ومن هؤلاء من يقول كذا ، وهم عبد الله بن أبى وأصحابه ، ومن كان فى حالهم من أهل التصميم على النفاق ، أو للجنس ، والمعنى : ومن جنس الناس من يقول كذا.

وسواء أكانت اللام للعهد أم للجنس فان المراد ذم هؤلاء الكفار وتقبيحهم والتعجيب من صنيعهم وإصرارهم على الكفر والعناد ، والتنبيه على أن الصفات المذكورة فى تنافى الإنسانية ، فينبغى أن يجهل كون المتصف بها من الناس ، وأن يتعجب من شأنه .

والتعبير بالمضارع (يقول) يدل علي تجدد القول من هؤلاء ،

واستمرار خداعهم ، إذ يظهرون خلاف ما يبطنون ، وينطقون بعكس ما يضمرون ..

وقوله تعالى **(آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين)** نلاحظ أن ذكر الباء فى (وباليوم الآخر) بعد ذكرها فى (بالله) قد أفاد المبالغة فى تأكيد ما ادعوه من الإيمانيين ، فهو واقع منهم - فى اعتقادهم - على صفة الصحة والاستحكام .

وقد جاء الرد عليهم بنفى الإيمان عنهم على سبيل البت والقطع، حيث عدل عن التعبير بالجملة الفعلية الى الجملة الاسمية فى قوله : (وما هم بمؤمنين) وكانت المطابقة لرد دعواهم تقتضى أن يقال : وما آمنوا ، وفى هذا العدول من التوكيد والمبالغة ما ليس فى غيره ، فقد أدى تقديم المسند إليه وإيلاؤه أداة النفى بالإضافة الى زيادة الباء فى المسند ، أدى ذلك الى تأكيد إخراج ذوات القائلين وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين ..

وهذا شأن ذلك التعبير ، تقديم المسند اليه على خبره غير الفعلى وإيلاؤه أداة النفى يفيد إما التوكيد والمبالغة فى نفى الحكم كما فى الآية الكريمة ، وكما فى قوله تعالى : **«ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى »**(٢٨) وإما الاختصاص كما فى قوله عز وجل : **«ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز .. »**(٢٩) وذلك حسبما يقتضى السياق ..

أما تقديمه على خبره الفعلى بعد النفى ، كقولك : ما أنا فعلت ، ما محمد أفسد هذا ، فانه يفيد الاختصاص فى الكثير الغالب ،

---

(٢٨) ابراهيم : ٢٢ .
(٢٩) هود : ٩١ .

وقـد يفيـد مجرد التوكيد فى القليل النادر(٢٩) ٠٠٠

وفى دعـوى المنافقين الإيمان قيـد بالله واليوم الآخر (**آمنـا بالله وباليـوم الآخـر**) وفى إبطـال دعواهم ونفى إيمانهم جـاء مطلقا بلا تقييد (وما هم بمؤمنين) فما القول فى هـذا ؟ ٠٠ **وما الغرض منه ؟**

إمـا أن يقـال : التقييد بالله واليوم الآخر مراد ، وقـد ترك فى الثـانى لدلالة الأول عليـه ، وامـا أن يقال : ان التقييد فى الثانى غير مراد ، بل المراد الإطلاق ، والمعنى أنهم ليسوا من الإيمان فى شىء ، لا من الإيمـان بالله واليوم الآخـر ، ولا من الإيمان بغيرهما ، وهـذا القول أرجح ، لأن فيـه زيادة فى التأكيد والمبالغة فى إبطـال دعواهم ونفى الإيمـان عنهم ، وهـو ما يلائم السـياق ٠٠

ولا يخفى علينـا الطباق بين قوله : (آمنا ٠٠ وماهم بمؤمنين) حيث أثبت الإيمـان ، ادعى المنافقون أنه ثابت لهم ، وواقع منهم ، ثم نفى عنهم بأبلغ وجـه ـ كما بينـا ـ ويعرف هذا لدى البلاغيين بطبـاق السلب ٠٠

والطباق وغيره من فنـون البديع ، ليس لمجرد الزينـة والتحسـين كما يرى كثير من البلاغيين ، بل لهـذه الفنون فضـلا عن الزينة وتحسين الكلام ، الأثر البالغ فى تجليـة المعانى وإبرازها ، حسبما يقتضى المقام، فنجـد للطباق فى الآية الكريمة أثره فى إيضاح المعنى المراد ، وإبـراز عقيـدة هؤلاء المنافقين وتناقضهم ، وافترائهم الكذب على الله تعالى ٠٠

(يخـادعون الله والذين آمنـوا ومـا يخدعون إلا أنفسهم ومـا يشـعرون)

---

(٢٩) ارجع الى كتابنا علم المعانى ج ١ ص ١٥٨ ٠

فصلت جملة (يخادعون ...) عن قوله تعالى : (يقول آمنا ... وما هم بمؤمنين) للاستئناف البيانى (شبه كمال الاتصال) اذ تضمنت الجملة الأولى سؤالا وجاءت الثانية جوابا له ، كأنه قيل : لم يدعون الإيمان كاذبين ؟ وما نفعهم فى ذلك ؟ فجاء الجواب : (يخادعون ...) .

ويصح أن يكون الفصل لكمال الاتصال ، لأن (يخادعون) بيان لقوله تعالى (**يقول آمنا ... وما هم بمؤمنين**) .

وفى (يخادعون) مجاز بالاستعارة ، حيث شبهت صورة صنيعهم مع الله تعالى بإظهارهم الإيمان وهم كافرون ، وصورة صنيع الله تعالى معهم إذ أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده أهل الدرك الأسفل من النار ، وصورة صنيع الله المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله تعالى فيهم فأجروا ذلك عليهم ، شبهت هذه الصور بصورة صنع الخادع ، فهى استعارة تصريحية تبعية ..

وقوله : (وما يخرعون إلا أنفسهم) أسلوب قصر طريقه (النفى والاستثناء) والمعنى أن ضرر الخدع لا يلحق إلا أنفسهم ، ومكره لا يحيق الا بهم ، وعلى ذلك ففى لفظ (يخدعون) مجاز مرسل حيث أطلق الخدع وأريد ما يترتب عليه من الضرر ..

وقيل انه لا مجاز ، والمراد حقيقة الخدع ، فهم يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ، وأنفسهم كذلك تخدعهم ـ على قراءة (وما يخادعون) ـ أى : تمنيهم وتحدثهم بالأمانى الكاذبة ، والأطماع الفارغة

وقر أوثر طريق (النفى والاستثناء) لأنه يستعمل فيما ينكره المخاطب ويجحده ويجهله ، أو فيما ينزل هذه المنزلة ، والمنافقون **ينكرون** أن ضرر الخداع لاحق بهم ، راجع الى أنفسهم ، **ويدفعون**

ذلك ويجحدون ، ولذا جاء القصر بالنفى والاستثناء دون (إنما) التى تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ، ولا ينكره ..

وفى ختام الآية الكريمة بنفى الشعور (وما يشعرون) دون التعبير بالعلم مثلا (وما يعلمون) ما يشعر بانحطاط أولئك المنافقين وتدنيهم عن مرتبة البهائم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، حيث لا يدركون الأمر الجلى البين وهو لحوق ضرر الخداع بهم ، فهذا أمر واضح كالمحسوس ، وهم لتمادى غفلتهم ، كالذى لا حس له ولا شعور، وفى هذا من الذم والتهكم بهم ما فيه ، ولا يخفى عليك أن نفى الشعور يستلزم نفى العلم ، فالذى لا يشعر بالأمر الواضح لا يعلمه بالطريق الأولى

(فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون)

فصلت هذه الجملة (فى قلوبهم مرض) عما قبلها للاستئناف البيانى ، فهى جواب لسؤال انبعث من الكلام السابق فحواه : ما بالهم لا يؤمنون ؟ وما الموجب لخداعهم وما هم فيه من النفاق ؟ فجاء الجواب : فى قلوبهم مرض ..

والمراد بالمرض : الكفر وسوء الاعتقاد ، أو الهيئة الباعثة على ارتكاب الرذائل كالغل والحسد والبغض ، قال تعالى : « **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر** »(٣٠) أو الهيئة المانعة عن اكتساب الفضائل كالضعف والجبن والخور ، ونحو ذلك من الآفات الشبيهة بالمرض ، فهو معنى مجازى ، حيث استعير المرض لهذه الآفات ، كما تستعار السلامة والصحة فى نقائض ذلك ..

---

(٣٠) آل عمران : ١١٨ .

ويصح أن يراد بالمرض فى الآية : الظلمة ، لأن المرض يطلق فى اللغة على السقم وما يقابل الصحة ، وعلى الألم وعلى الظلمة ، قال الشاعر :

فى ليلة مرضت من كل ناحية

فما يحس بها نجم ولا قمر

وعلى هذا أيضا فالمعنى مجازى ، إذ المراد ظلام الكفر وسواده، لا حقيقة الظلمة ، كما فى قوله تعالى : « **يخرجهم من الظلمات إلى النور** »(٣١) ، أى : من الكفر إلى لإيمان ..

وتنكير (مرض) للدلالة على أنه نوع غير ما يتعارفه الناس من الأمراض ، وقد أفرد المرض فلم يجمع كما جمعت القلوب (فى قلوبهم) لأن تعداد المحال يدل على تعداد الحال ، فاكتفى بجمع (القلوب) عن جمع (المرض) .

وجملة **(فزادهم الله مرضا)** إما دعائية معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه والجملة المعترضة قد تقترن بالفاء ، كما فى البيت :

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتى كل ما قدرا

وإما إخبارية معطوفة بالفاء على الاسمية قبلها ، والتعبير بالاسمية (فى قلوبهم مرض) ثم عطف الفعلية عليها بالفاء ينبىء بأن المرض فطرة فيهم ثابتة ومحققة ، ولذا ازدادوا على الفور بما من الله به على المؤمنين مرضا ، واذا لم يكن المرض طبعا متأصلا فيهم ، لزال عنهم وشفوا منه ، وتغيرت حالهم ، فحدث لهم بما من الله تعالى به على المؤمنين شفاء واستبراء ..

وفى قوله تعالى : (**فزادهم الله**) حذف المضاف ، والأصل : فزادها الله أى : فزاد الله قلوبهم ، وهذا الحذف ينبىء بتمكن المرض

---

(٣١) البقرة : ٢٥٧ .

واستشرائه فى جميــع الجسد ، وأنه لم يقف عند حد القلب فحسب ..

وتنكير المرض فى قوله تعــالى : (**فــزادهم الله مرضــا**) للتفخيم والتعظيم ، أى فزادهم الله مرضــا عظيما فوق مرضهم الذى طبعوا عليه .

وفى قوله تعالى : (**ولهم عذاب أليم**) مجــاز عقلى ، لأن (أليم) فعيــل بمعنى مفعــل بفتح العين ، اسم مفعول من آلم ، والعذاب فاعــل للألم وليس مفعــولا ، فهو مجــاز عقــلى أسند فيــه اسم المفعول إلى الضمير العــائد على الفاعل (العذاب) ، كما فى قوله تعالى : « **حجابا مستورا** »(٣٢) ، وكما فى قولهم سيل مفعم بفتح العين ..

والعــذاب الأليم يصيب المنافقين ويلحق بهم لأسباب كثيرة ولجهات عــديدة ، وجعــل الكذب هو السبب للحوق العذاب بهم فى قوله :(**ولهم عــذاب أليم بما كانــوا يكذبون**) ينبىء بشناعــة الكذب ، وينفــر من ارتكابه ، حيث خيــل ـ كما يقول الزمخشرى ـ أن العذاب لاحق بهم من أجــل كذبهم .

وكلمــة (كان) تدل على الاستمرار فى جميع الأزمنــة ، ووقــوع المضــارع بعــدها (يكذبون) يدل على الاستمرار التجددى الداخل فى جميع الأزمنــة ، فكذب المنافقين مستمر يتجــدد فى زمــان الحــكم ، وفى الزمن الماضى ، وفى المستقبل الآتى بعــد زمن الحكم ..

(**وإذا قيــل لهم لا تفســدوا فى الأرض قالوا إنمــا نحن مصلحون الا إنهم هم المفســدون ولكن لا يشــعرون**) .

هــذه الجملة (اذا قيــل لهم ...) معطوفة على مــا قبلهــا ، وفى تحــديد المعطوف عليه أقوال هى :

١ ـ قيــل المعطــوف عليه قوله تعــالى : (**يكــذبون**) لأنه أقــرب ؛ والمعنى أن سبب استحقاقهم العــذاب كذبهم وإفسادهم فى الأرض،

---

(٣٢) الإسراء : ٤٥ .

أى : ولهم عـذاب أليم بسبب كذبهم وإفسادهم .

٢ - وقيـل المعطوف عليه (يقول) فى قوله تعـالى : (**ومن النـاس من يقـول آمنـا بالله ...**) لتكون الآيات على نمط تعديد قبائحهم وإفادتها اتصافهم بكل من تلك الصـفات استقلالا وقصـدا ودلالتها أيضـا على أن لحوق العـذاب بسبب كذبهم الذى هو أدنى أحوالهم فى الكفـر والنفاق ، فمـا بالك بسائر أحوالهم ..

٣ - وقيل إنها معطوفة على قوله : (ومن النـاس ..) لبيان حالهم فى ادعـاء الإيمان وكذبهم فيـه أولا ، ثم بيان حالهم فى امكانهم فى باطلهم ورؤية القبيح حسنا والفسـاد صـلاحا ثانيا ، وهـذا أرجح الأقوال فى تحـديد المعطوف عليه ، لأنه يجعـل المعتمـد بالعطف مجموع الأحوال ، وهـذا ما يقتضيه السياق ويتلاءم مع تعـداد القبائح ..

وفى إيثـار التعبير (بإذا) دون (إن) مـا يفيد تحقق القـول وإسداء النصح ، وعلى الرغم من تحقق القول وإسـداء النصح ، فقـد أعرضـوا واستمروا فى غيهم وأصروا على عنادهم .. والقائل إمـا النبى ﷺ مبلغـا عن ربه الذى أخبره بنفاقهم ، وامـا بعض المؤمنين المتفرسين بنـور الإيمـان أحوالهم ، وإمـا بعض من كانوا يلقـون إليهم الفسـاد فلم يقبلـوه منهم لأمر مـا وانقلبـوا لهم واعظين ناصحين ، وحـذف الفاعل وبنـاء الفعـل للمفعول قد جعل المعنى يتسع لكون القـائل أحـد من ذكـرنا ..

والمراد بالنهى فى قوله تعـالى : (**لا تفسدوا**) النصح والإرشـاد والمراد بالأرض جنسـها ، فأل للاستغراق ، والنهى عنـدئذ عن الإفساد فى أى فـرد من أفرادها ، أو المراد بهـا المدينـة المنـورة فأل للعهـد الذهـني ..

ولا يقال : كيف أسـند الفعل إلى الفعـل فى قول‍ه تعـالى : (**قيـل لهم لا تفسـدوا**) ومثله : (**قيل لهم آمنـوا**) ؟ لأن الذى لا يصـح هو إسـناد الفعل إلى معنى الفعل ، وأمـا إسـناده إلى لفظه كما هنا فهـو صحيح ، كأنه قيل : وإذا قيـل لهم هـذا القول ، فالألفاظ سـواء أكانت مهملة أم مستعملة ، مفردة أم مركبة يصح الإسناد إليها ، أى إلى ألفاظها سـواء كانت مجردة عن ملاحظة معانيها ، كما فى قولنا : ألف من ثلاثة أحـرف ، أو مأخوذة معها ، كما فى الآية (**قيـل لهم لا تفسـدوا**) إذ المسـند إليه لفظها باعتبار الدلالة على المعنى ..

وقوله تعـالى : « **إنمـا نحن مصلحون** » أسـلوب قصر ، قصروا أنفسهم على الإصلاح المحض الذى لا يشـوبه شىء من وجـوه الفساد ، فهو قصر إفـراد ، لأنهم لمـا نهوا عن الإفساد ، وتوهموا أنه قـد حكم عليهم بأنهم يخلطون الإصلاح بالإفساد ، أجابوا بأنهم مقصورون على محض الإصلاح لا يشوبه شىء من وجوه الفساد والإفساد ..

وإيثـار التعبير بإنمـا دون غيرها من طـرق القصر كالنفى والاستثناء مثلا ، للدلالة على أن هـذا أمر واضح لا ينبغى أن يرتاب فيـه أحـد ، أو يجهله ، لأن (إنمـا) تستخدم فيمـا الشأن فيـه أن يعلمه المخاطب ، لا ينكره ولا يشك فيـه .

وفصـل قوله تعـالى : (**ألا إنهم هم المفسـدون**) عمـا قبـله للاستئناف البيـانى ، كأن قائلا قال : وهل صدقوا فى دعواهم الاصلاح ؟ فأجيب : ألا إنهم هم المفسدون ، وهذا رد لدعواهم بأبلغ وجه ، فبالإضافة إلى الاستئناف البيانى الذى أدى إلى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع قـد جـاء التأكيد بألا وإن ، وتوسـط ضمير الفصل وتعريف الخـبر ، ثم قوله (لا يشعرون) .

(فألا) أداة تنبيه قيل إنهـا مركبة من همزة الاستفهام و (لا) النافيـة ، فهى تفيـد التنبيـه على تحقيـق مـا بعـدها ، لأن الهمزة

للاستفهام الإنكارى ، وإنكار النفى تحقيق للإثبات وقيل إنها بسيطة لا تركيب فيها ، وتفيد التنبيه والتحقيق بأصل الوضع، ومثلها (أما) وسواء أكانتا مركبتين أم غير مركبتين ، فهما يستخدمان فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تنبيه وتأكيد وتحقيق، كما فى الآية (**ألا إنهم هم المفسدون**) وكما فى قوله تعالى « **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم** »(٣٣) وكما فى قول القائل :

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى
أليفين منها لا يروعهما الذعر

فهما لا تكاد الجملة تقع بعدهما إلا مؤكدة بنحو ما يتلقى به القسم ، كإن واللام وقد وحرف النفى ..

وقوله : (انهم هم المفسدون) أسلوب قصر طريقه تعريف المسند بأل ، فهم مقصورون على الإفساد قصر قلب ، وضمير الفصل تأكيد لهذا الحصر ، وهذا مناسب لرد دعواهم الكاذبة ، فإنهم لما قصروا أنفسهم على الإصلاح قصر إفراد ، ناسب فى الرد أن يقصروا على الإفساد قصر قلب ، أ ى: هم مقصورون على الإفساد ، لاحظ لهم فى الإصلاح(٣٤) .

ومما يؤكد رد دعواهم قوله تعالى : (**ولكن لا يشعرون**) فهو

---

(٣٣) يونس : ٦٢ .
(٣٤) الأصل فى هذا الطريق أن المقصور هو المقترن بأل ، والمقصور عليه الخالى منها ، ولكن السياق فى الآية الكريمة اقتضى مخالفة هذا الأصل ، وأوجب أن يكون المقصور الضمير العائد على المنافقين فى قوله : (إنهم) والمقصور عليه المسند المقترن بال (المفسدون) كما رأينا .

يدل على أن كونهم مفسدين قد ظهر ظهورا بينا ، وصار كالمحسوس ، ولكن لا حس لهم ليدركوه ..

وقد جاءت أداة الاستدراك (لكن) هنا ، ولم تأت هناك بعد المخادعة فى قوله تعالى : (**يخادعون الله ... وما يشعرون**) لأنه لم يتقدم فى المخادعة ما يتوهم منه الشعور توهما يقتضى التعقيب برفعه ، وأما هنا فقد تقدم نهيهم عن الإفساد وإجابتهم أنهم مصلحون ورد تلك الإجابة،ولذا كان الأمر هنا محلا للاستدراك ، دون ما هناك.

ومفعول (لا يشعرون) محذوف ، تقديره : ولكن لا يشعرون أنهم مفسدون ، ولا يقال : كيف يذم من أفسد ولم يعلم ، وإنما يذم من أفسد عن علم ؟ لأن تقصيرهم فى العلم مع التمكن منه يوجب ذمهم ..

ويحتمل أن يكون تقدير المحذوف : ولكن لا يشعرون أن وبال ذلك الفساد يرجع إليهم ، أو : ولكن لا يشعرون أنا نعلم أنهم مفسدون ، وعندئذ فقوله تعالى : **(ألا إنهم هم المفسدون)** خبر أريد به لازم الفائد لأنهم يعلمون الخبر ، أى : يعلمون أنهم مفسدون ، ولكن يجهلون علم المتكلم به ، أو يجهلون عاقبة الإفساد ، ورجوع وباله إليهم ، فالخبر اذا أريد به لازم الفائدة ، لأن المخاطب ان كان يجهل الحكم ، فالغرض من الخبر : فائدته ، وإن كان يعلم الحكم ، فالغرض منه هو (لازم الفائدة) ..

ويحتمل ألا ينوى تقدير محذوف ، ويكون الفعل كاللازم ، والمعنى : أنهم ليسوا من أهل الشعور والعلم ، وهذا أبلغ فى ذمهم، وفيه مزيد تسلية لرسول الله - ﷺ - ، لأن من كان من أهل الجهل ، لا يعبأ به ، ولا ينبغى أن يكترث بمخالفته ..

(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) .

وصلت هـذه الآية بقوله تعـالى : **(وإذا قيـل لهم لا تفسـدوا)** تعـدادا لقبائح المنافقين ، وإصرارهم على العنـاد والمـكابرة ، فقـد نصـحوا أولا بترك الرذائل والتخلى عن الإفسـاد ، فأبوا ولم يستجيبوا ثم نصـحوا ثانيا هنـا باكتساب الفضائل وتحصـيل الإيمـان ، فأبـوا وسـخروا عنـادا وتكبرا ..

وإيثـار التعبير (بإذا) دون (إن) يفيـد تحقق وقوع النصح ، والقائل ـ كما وضحنا فى الآية السابقة ـ هو النبى ـ ﷺ ـ أو المؤمنون، أو بعض من كانوا يلقـون إليهم النفاق فلم يقبلوا ، وانقلبوا لهم ناصحين وحذف الفاعل فى (قيل) جعل المعنى يتسع لذلك ـ كما ذكرنا ـ ويشعر بأنهم نصحوا من جهـات عـدة ، ومع ذلك أبوا إلا العنـاد والمكابرة ..

ولا يعترض على كون الناصح النبى ـ ﷺ ـ أو المؤمنين بأن ذلك يلزم مجاهرتهم بالكفر ، فيكونون كفارا لا منافقين ، لأن إجابة المنافقين الناصح وقولهم له : أنؤمن كما آمن السفهاء ، يحمـل عندئذ على أنه كان مقولا فيما بينهم ، وليس مقولا فى مواجهـة المؤمنين أو النبى ﷺ ..

والأمر فى قوله تعـالى : **(آمنـوا)** للنصـح والإرشـاد ، فقـد نصحوا بأن يتحقق إيمانهم ، وأن يكون إيمانا مشابها لإيمـان الناس ، خالصـا من شوائب النفاق الذى تمكن منهم ، وملئوا به ..

فالمطلوب منهم إيمـان يكون مقرونا بالإخلاص ، بعيدا عن النفاق، مماثلا لإيمـان النـاس ، وتشبيه الإيمـان المطلوب تحقيقـه منهم بإيمان النـاس ، يدل على سـوء أحوالهم ، وظهـور نفاقهم ، وأن ما ادعوه من إيمـان لا وجود له ، بل هم عنـه بمعزل إذ « **يقولون بأفـواههم ما ليس فى قلوبهم** »(٣٥) ولذا طلب منهم أن يستقيموا على الطريقة ، وأن يتخلوا عن النفاق ، وأن يؤمنوا إيمانا خالصـا كإيمان الناس ..

---

(٣٥) آل عمران : ١٦٧ .

واللام فى (الناس) إمـا للعهد ، والمراد بهم الرسـول ﷺ ومن آمن معـه ، أو للجنس ، أى : كمـا آمن جنس النـاس ، الكاملون فى الإنسانية ، جعل المؤمنون كأنهم النـاس على الحقيقـة ، ومن عـداهم ليسوا من الإنسانية فى شىء ، فهم كالأنعـام بل هم أضـل ، حيث فقدوا التمييز بين الحق والباطل ٠٠

والاستفهام فى قوله تعـالى : (**أنؤمن كما آمـن السفهاء**) للإنكار الإبطالى ، والمعنى : لن يكون ذلك الإيمـان أصـلا ، وإطلاقهم لفـظ السفهاء على المؤمنين يدل على مـدى العنـاد والمكابرة ، والإصرار على الضلال والغى ، حيث جعلوا الكاملين فى الانسانية سفهاء ٠

واللام فى (السفهاء) امـا للعهـد ، والمراد بهم النـاس المذكورون فى الآية قبـل ، وإمـا للجنس ، وينطوى تحتـه المذكورون لأنهم ـ فى زعمهم واعتقادهم ـ أعرق الناس فى السفه ٠٠

وقد جـاء الرد عليهم بأبلغ وجـه (ألا إنهم هم السـفهاء) حيث فصـل عما قبله للاستئناف البيانى ، وصدر بأداة التنبيه (ألا) وتلتها أداة التوكيـد (ان) ، وجىء بضمير الفصـل (هم) وعرف الخبر بلام الجنس ، (السفهاء) فهم مقصورون على السـفاهة ، وطـريق القصر تعـريف الخبر باللام ، وضمير الفصل مؤكد لهـذا القصر ، وقد سـبق تفصـيل ذلك فى الآية السابقة (ألا إنهم هم المفسدون) فعد إليه(٣٦) ٠

---

(٣٦) الأصـل فى طريق (تعريف الخبر بأل) أن المقصور هو المقترن بأل والمقصور عليـه هو الخـالى منها ، ولكن السـياق اقتضى مخالفة هـذا الأصل وجعل المقصور المسند اليـه والمقصور عليـه المسند المقترن بأل ، فهم مقصـورون على السفاهة ، موقوفون عليهـا وهـذا أبلغ فى ذمهم وتقبيحهم من جعل السفاهة مقصورة عليهم لا تتعداهم إلى المؤمنين ، وبهـذا يتضح لنـا أن السياق قد يقتضى مخالفة الأصـل الذى قرره البلاغيون ، وقـد عرفنا أن الطريقين من طـرق القصر قد يجتمعـان ويقتضى السـياق اعتبار أحـدهما وإلغـاء الآخر لتعارضهما فى تحـديد المقصور والمقصور عليـه ، فالمعـول عليـه اذا هو السياق ، وما يقتضيه يقدم على الأصول والمقررات البلاغية عند تعارضه معها ٠

لم ختمت هـذه الآية بنفى العلم وختمت السابقة بنفى الشعور ؟

ختمت هـذه الآية الكريمة بنفى العلم (ولكن لا يعلمـون) وختمت السابقة بنفى الشعور (ولكن لا يشـعرون) لأن المثبت لهم هنـاك فى الآية السابقة هو الإفساد الذى نهوا عنه ، وهو مما يدرك بأدنى تأمل ، ولا يحتـاج إلى إعمال فكر ، لأنه أمـر دنيـوى ، مبنى على العـادات معلوم عنـد النـاس ، ولذا نفى عنهم الشـعور مبالغـة فى تجهيلهم ، لأنهم جهلوا ما يدرك بالمشاعر ..

وأمـا المثبت هنا فى هـذه الآية فهو السفه ، وقـد صـدرت الآية بالأمر بالإيمان ، وذلك ممـا يحتاج إلى نرظ واستدلال ، وتأمل يفضى إلى الإيمـان ، ولكن لم يقع منهم إيمان ، فناسب ذلك نفى العلم عنهم.

وأيضـا السفه هو خفـة العقل والجهل بالأمور ، والذى ينـاسـب ذلك أتم مناسبة هو نفى العلم الذى ختمت به الآية (ولكن لا يعلمون) .

(وإذا لقـوا الذين آمنـوا قالـوا آمنـا وإذا خـلوا إلى شـياطينهم قـالوا إنـا معـكم إنمـا نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم ويمـدهم فى طغيـانهم يعمهـون) .

وصلت هذه الآية الكريمة بقوله تعـالى فى الآية السابقة : (وإذا قيـل لهم آمنـوا ...) تعـدادا لأحوال المنافقين ، اذ تضـيف وصـفا آخـر لأوصافهم السابقة ، وهو الكشف عن حالهم عنـد لقائهم المؤمنين وعنـد خلوهم بإخوانهم فى الضـلال ، فهم إذا لقـوا المؤمنين ادعـوا الإيمان ، وإذا انفردوا بقـرناء السـوء نفوا ما ادعوه وأكدوا لهم أنهم مـا ادعوه إلا سخرية واستهزاء .

وهكذا تتوالى أحـوال المنافقين ، وتعـدد الآيات قبائحهم وأفعالهم المشينة ، حيث بدأت ببيـان نفاقهم ، إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، وخـداع المؤمنين ، وتمكن الكفر والحقـد من قلوبهم ، ثم كشـفت عن إفسادهم وتعاميهم عن الحق ، ثم أبرزت سـفاهتهم ورفضهم لن يكونوا

كالخيــار فى تحصيل الفضــائل ، ثم بينت هــذه الآية كيف أنهم يتلونون فيلقون المؤمنين بوجـه ، ويلقون إخوانهم فى الضـلال والنفاق بوجـه آخـر ، وهكذا تتعدد قبائحهم ، وتتوالى شنائعهم ..

وفى التعبير بقوله تعـالى : (لقــوا ... وخـلوا الى) بيـان لحـالين مختلفين للمنافقين ، فحالهم مع المؤمنين لقــاء يقــع ، وحالهم مع شياطينهم خـلو إليهم ، وانفــراد بهم ، وإقبال عليهم ، يقــال : خلا اليــه ، وخلا به أى : انفــرد معه ، أو خــلا غيره اليــه بحذف المفعول ، والتقــدير : واذا خــلوا المؤمنين الى شياطينهم ، وهــذا الحذف يومىء الى مــدى كراهتهم وبغضهم للمؤمنين ، واستثقالهم لقــاءهم ، فما يكاد اللقــاء ينتهى ، حتى يسارعوا الى شــياطينهم ، ولذا لم يقــل : واذا خلوهم الى شياطينهم ، بل قال : (واذا خـلوا الى شياطينهم) ليــدل على مدى التلهف إلى الخلو بهم ، والتفــرد معهم ، فالفعل (خلا) إما لازم بمعنى انفــرد ، وإمــا متعد بمعنى ترك وتجــاوز يقال : افعــل كذا وخلاك ذنب ، أى : تركك وتجاوزك ولم يصبك .

فشأن المنافقين مع المؤمنين لقــاء يعقبــه ترك لهم ، وخلو الى مــا يريدون مع شياطينهم ، وهــذا يدل على بغضهم المؤمنين ـ كما قلت ـ وعلى مدى حبهم وإخلاصهم لشياطينهم ، وحرصهم على الخــلو إليهم والتفرد بهم ، وممــا يؤكد هــذا المعنى تلك الاضــافة (شــياطينهم) التى تدل على الاختلاط والامتزاج والحب المتبادل بينهم ..

ولذا كانت مخاطبتهم المؤمنــين بالجمــلة الفعليـــة : (آمنــا) ومخاطبتهم شياطينهم بالجمــلة الاسمية المؤكدة : (إنا معكم إنما نحن مستهزءون) لأن كل قول لم يصــدر عن أريحيــة وصــدق رغبة واعتقاد ، يكون بلا توكيــد ، ليدل على أن النفس غير ممتلئــة به ، وغير حريصة عليــه ولعلمها أنه لا يروج عنهــا إذا جــاء على لفظ التوكيد والمبالغــة ، لهــذا كان خطاب المنافقين المؤمنين بلا توكيد (آمنــا) وأمــا خطابهم إخوانهم للشياطين ، فنابع من قلوبهم ، صــادر عن أريحيــة وصــدق

رغبة ، وأنفسهم به ممتلئة ، وهم على ثقة أن ما قالوه سيكون رائجا ومتقبلا منهم ، ولذا جاء مؤكدا (إنا معكم إنما نحن مستهزءون) .

ومن هنا يتضح لك أن أضرب الخبر لا يعول فيها دائما على حال المخاطب ، بل قد يعول على أمور أخرى غير حال المخاطب، كحال المتكلم ومدى انفعاله بالخبر أو عدم انفعاله به ، وارتياحه له أو عدم ارتياحه ، وحرصه عليه أو عدم حرصه ، ، كما رأينا فى الآية الكريمة(٣٧) .

وفصلت جملة (إنما نحن مستهزءون) عن جملة (إنا معكم) لكمال الاتصال لأنها توكيد لها وتقرير ، ويصح أن يكون الفصل للاستئناف البيانى ، كأنهم حين قالوا (إنا معكم) اعترضوا عليهم فسألوهم : فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام ؟ فأجابوا (إنما نحن مستهزءون) .

أما جملة (الله يستهزىء بهم) فقد فصلت عما قبلها إما لشبه كمال الانقطاع ، لأنه يصح عطفها على الجملة الشرطية (إذا خلوا ولكن عطفها عليها يوهم العطف على قوله (إنا معكم) فيتدرج فى فى مقول المنافقين ، أو على قوله (قالوا) فيتقيد بالظرف ، فدفعا لهذا التوهم كان الفصل .

وإما أن يكون الفصل للاستئناف البيانى ، وكأن سائلا سأل : ما مصير هؤلاء المنافقين ، وكيف كانت معاملة الله تعالى والمؤمنين إياهم ؟ فأجيب (الله يستهزىء بهم) ...

وإسناد الاستهزاء إلى لفظ الجلالة يفيد المبالغة فيما ينزل بهم من النكال ، ويحل بهم من الهوان والذل ، كما يدل على أن الله سبحانه وتعالى يكفى عباده المؤمنين التصدى للمنافقين ، وينتقم لهم ، ولا

---

(٣٧) ارجع إلى كتابنا على المعانى ج ١ ص ٥٠ لتقف على الأمور الأخرى التي يعول عليها في إلقاء الخبر غير حال المخاطب .

يحوجهم إلى الرد عليهم ومعارضتهم ، وذلك تعظيما للمؤمنين ، وإعلاء لشأنهم ..

والمراد باستهزاء الله بهم : عقابهم وجزاؤهم على استهزائهم ، فهو مجاز مرسل ، حيث أطلق السبب وأريد المسبب ، أطلق الاستهزاء وأريد جزاؤه ، وذكر العقاب بلفظ (الاستهزاء) فى صحبة قولهم : (إنما نحن مستهزءون) مشاكلة لطيفة ، ومثله قوله تعالى : « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** »(٣٨) وقوله عز وجل : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** »(٣٩) .

والعدول إلى التعبير بالمضارع فى قوله تعالى : (يستهزىء) بعد التعبير بالاسم فى قوله عز وجل : (نحن مستهزءون) يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت ، أى : يفيد التجدد الاستمرارى ، وهذا أبلغ من الاستمرار الثبوتى الذى تفيده الجملة الاسمية ، لأن البلاء اذا استمر ثابتا قد يهون وتألفه النفس ، واذا تجدد كان أنكى وأشد ، ولذا كانت نكايات الله تعالى فيهم ، ونزول الآيات فى شأنهم أمرا متجددا مستمرا ، قال تعالى : « **أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين** »(٤٠) وقال عز وجل : « **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم** »(٤١).

وتقديم لفظ الجلالة المسند اليه فى قوله (الله يستهزىء بهم) على خبره الفعلى يفيد الحصر ، أى : قصر الاستهزاء بهم على الله وحده ، دون المؤمنين تعظيما لشأنهم ، حيث ينتقم سبحانه وتعالى لهم ، ولا يحوجهم الى التصدى للمنافقين ومعارضتهم ـ كما ذكرنا ..

وهذا شأن المسند اليه عندما يقدم على خبره الفعلى فى الاثبات

---

(٣٨) الشورى : ٤٠ .
(٣٩) البقرة : ١٩٤ .
(٤٠) التوبة : ١٢٦ .
(٤١) التوبة : ٦٤ .

نحو أنا أكرم الضيف ، محمد يصنع المعروف ، وقولهم فى المثل : (أتعلمنى بضب أنا حرشته) فهو يفيد إما التوكيد ، كما فى المثالين وإما الحصر كما فى المثل ، وكما فى الآية الكريمة، وذلك حسبما يقتضى السياق(٤٢) .

وإيثار التعبير بإنما فى قوله تعالى : (إنما نحن مستهزءون) يفيد أن استهزاءهم أمر واضح جلى ، لا يجهله أحد ، ولا ينكره منكر ، ولذا كان عقابهم أشد وأبلغ ـ كما بينا فى قوله تعالى : (الله يستهزىء بهم) .

ووراء الإضافة فى قوله : (شياطينهم) .. (طغيانهم) معان لطيفة ، فهى تدل على مدى انغماسهم فى الضلال ، وتأصلهم فى الطغيان ، إذ صارت لهم شياطين تضاف إليهم ، وتعرف بهم ، وهم قرناء السوء ، كما صار لهم طغيان ينسحب عليهم ، ويندرجون تحته ، وقد عرفوا به واشتهروا ، وبات خاصا بهم ، وملازما لهم ، لا ينصرف الى من عداهم ممن يطغى ، وهذا المعنى يفتقد ، لو عرف الطغيان بالألف واللام ، وعدل عن إضافته إليهم ، فقيل : ويمدهم فى الطغيان ..

ولا يخفى علينا أن الوصل بين الجملتين : (يستهزىء بهم) ، (ويمدهم فى طغيانهم) ، للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، حيث اتفقت الجملتان فى الخبرية لفظا ومعنى ، ومما حسن الوصل بين الجملتين تناسبهما فى كون المسند فيهما مضارعا ، وتناسبهما أيضا فى القيد (بهم) .. (فى طغيانهم) وكذا القول فى الوصل بين الجملتين : (اذا لقوا ...) (واذا خلوا ...) .

وأوثر التعبير (بالعمه) دون (العمى) فى قوله تعالى : (يعمهون) لأن المراد بالعمه : التردد والتحير ، ويستعمل فى الرأى

---

(٤٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٥٩ .

خاصة ، وأما العمى فإنه يستعمل فى الرأى وفى البصر ، فالعمه أخص فى الاستعمال ، وقد أوثر بالتعبير ، لأن المراد عمى البصيرة ، لا عمى البصر ..

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)

فصلت هذه الآية عما قبلها ، ويرجع هذا الفصل إما إلى أنها مقررة لقوله تعالى : (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) فالفصل بينهما لكمال الاتصال ، أو الى أنها تعليل لاستحقاقهم الاستهزاء الأبلغ ، والمد فى الطغيان ، فالفصل بينهما للاستئناف البيانى ، وكأن سائلا سأل : لم يستهزىء الله بهم هذا الاستهزاء ، ويجازيهم هذا الجزاء ، ويذيقهم ذلك الذل والهوان ؟ فأجيب : لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) .

ويمكن أن يكون الفصل للاستئناف البيانى ، ولكن ليس بالاعتبار المذكور ، بل بكون التعليل ينسحب ويمتد الى جميع صفات المنافقين التى جليت فى الآيات المتقدمة ، فإن السامع بعد سماع أحوالهم ، وإجراء تلك الأوصاف عليهم ، كأنه يسأل : كيف اتصف هؤلاء بهذه الأوصاف المشينة ؟ ومن أين جاءتهم هذه القبائح ودخلت عليهم تلك الشنائع ؟ فيجاب بأن أولئك المستبعدين إنما جسروا عليها لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، فخسروا صفقتهم ، وفقدوا الاهتداء الى الطريق المستقيم ، ووقعوا فى تيه الحيرة والضلال ، وهكذا يمتد الترابط ، وتتغلل العلاقات بين الجمل الى أعماق بعيدة ، ولا تقف عند حد الجمل المتجاورة ..

والتعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) يدل على بعد منزلتهم فى الشر وسوء حالهم ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، وعندما يأتى اسم الإشارة بعد عدة صفات فيشار به إلى أن

من تعـددت صفاتهم قد استحقوا الجزاء الواقع بعده بسبب تلك الصفات التى عـددت ، عندما يأتى كذلك يكون له موقع لطيف حسن ، كما فى الآية الكرمـة ، فقـد توالت قبل صفات المنافقين ، ثم ذكر اسم الإشارة (أولئـك) فنبـه الى أن من تقدمت أوصـافهم جديرون بالجزاء المذكور بعـد ، وهو قوله تعـالى : (**فمـا ربحت تجـارتهم ومـا كانوا مهتدين**) ويستحقونه ، وصـاروا له أهـلا ، بسبب تلك الصفات المتقدمة ..

ومن ذلك قوله تعالى (أولئك هم الوارثون) فى سورة (المؤمنون) فقـد ذكرت الإشارة بعـد تعداد صفات المؤمنين ، فنبهت إلى جدارتهم بالجـزاء المذكور بعد ، وكذا القول فى قوله تعـالى عقب ذكر صـفات المؤمنين فى هذه السـورة الكريمة (أولئـك على هـدى من ربهم وأولئك هم المفلحـون) ـ كما بينـا ـ .

وقد قصر المسند على المسند إليـه فى قوله (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهـدى) لأن تعـريف الموصـول للجنس فهو بمنزلة التعريف بال التى للجنس ، وهو قصر حقـيقى غير تحقـيقى ، لأنه قائم على المبالغـة ، والدلالة على بلوغهم الكمال فى اشتراء الضـلالة ، وكأن من عداهم من الكفار وإن شاركوهم فى ذلك الشراء ، لا يعتـد بمشاركتهم لبلوغ أولئك المنافقين الغاية فى اشتراء الضلالة بالهدى .

وقـد استعير الاشتراء للاختيـار والاسـتبدال فى قوله تعـالى : (اشتروا الضلالة بالهدى) ، ثم اشتق من الاشتراء (اشـترى) بمعنى: اختـار الضـلالة واستبدلها بالهدى ، لأن الاشتراء فيـه إعطـاء بـدل وأخـذ آخـر ..

ولا يقـال : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم ليسوا على هدى ؟ وكيف يدفعـون ثمنـا ليس بأيديهم ؟ لأن المـراد تمكنهم من الهـدى وعرضـه لهم ، فكأنه فى أيديهم ، فاذا تركوه الى الضلالة فقـد عطلوه واستبدلوها به ، أو لأن المراد بالهـدى الفطرة التى جبلوا عليها ، وقد

كانوا على هـذا الهدى بلا شبهة وكان حاصـلا لهم حقيقـة ، فإن كل مولود يولد على الفطرة ، ثم استبدلوا به الضلالة ..

و (الضـلالة) و (الهـدى) مجازان مشهوران ، لأن المعـنى الحقيقى للضـلالة : الجـور عن القصـد ، وللهـدى : التوجه اليـه ، فاستعيرت الضلالة للعـدول عن الصواب فى الدين ، والهـدى للاستقامة عليـه ، وقد اشتهر هذا المجـاز حتى صار كالحقيقة ..

وفى اسـناد الربح الى التجـارة فى قوله تعـالى « **فمـا ربحت تجـارتهم** » مجـاز عقلى ، حيث أسـند الفعل الى مفعوله ، وأصـل الإسناد : فمـا ربحوا فى تجارتهم ، والتجوز فى الإسناد فى الآية يفيـد المبالغة فى خسرانهم وبوار تجارتهم ..

ويعـد هـذا المجاز العقلى ترشيحا للاستعارة فى قوله تعـالى : « **اشـتروا الضـلالة بالهـدى** » اذ ترشيح المجـاز اقترانه بصفة أو تفريع كلام يلائم معنـاه الحقيقى بعـد استيفاء القرينة ، وذكر الربح والتجارة فى الآية ممـا يلائم المعنى الحقيقى للفـظ الاشـتراء ، وذلك يقـوى الاستعارة ، ويحقق المبالغة فى التصوير ، وكأن الكلام على الحقيقة ..

يقول الإمـام الزمخشرى : (هـذا من الصنعة البديعة التى تبلـغ بالمجـاز الذروة العليـا ، وهو أن تساق كلمة مسـاق المجـاز ثم تقفى بأشكال لهـا وأخوات اذا تلاحقن لم تر كلامـا أحسن منـه ديبـاجة ، وأكثر مـاء ورونقـا ، وهو المجاز المرشح) (٤٣) .

---

(٤٣) الكشاف ١٩٢/١ وعكس الترشيح : التجريد ، وهو أن يقرن المجاز بمـا يلائم المعنى المجـازى للفظ المستعار بعـد استيفاء القرينة كما فى قول البحترى :

يؤدون التحيـة من بعيـــد إلى قمـــر من الإيـــوان بـاد

حيث استعير القمـر للانسان الجميل ثم قرن بمـا يلائم المعنى المجـازى وهو قوله من الايوان باد ، فاذا لم تقترن الاسـتعارة بمـا يلائم أحـد المعنيين . كانت استعارة مطلقة ... ارجع الى كتابنا علم البيـان ص ٢٠٥ وما بعدها .

وقّد وصل بين الجملتين (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) بالواو وعطفتا معا على قوله تعالى : (**اشتروا الضلالة بالهدى**) بالفاء ، وهذا العطف يشير الى سرعة الخسران ووقوعه عقب الشراء ، فبمجرد اشتراء الضلالة بالهدى تحقق الخسران المبين، فلم يحققوا ربحا ، بل لم يبق لهم رأس المال أصلا ..

فالذى يطلبه التجار من تجارتهم أمران : سلامة رأس المال ، والربح وهؤلاء قد أضاعوا الأمرين معا ، لأن رأس مالهم كان الهدى، ولم يبق لهم مع الضلالة ، وحيث لم يبق لهم رأس مال ، فكيف يوصفون بتحقيق ربح ؟ ولذا كان العطف بالفاء فى قوله : (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) مؤذنا بسرعة الخسران والبوار ، ووقوعهما مباشرة عقب اشتراء الضلالة بالهدى ..

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون • صم بكم عمى فهم لا يرجعون) •

بعد أن كشفت الآيات السابقة عن أحوال المنافقين ، وجلت خصالهم ، وبينت ما طبعوا عليه من صفات ، عقب هنا بضرب المثل لهم ، زيادة فى الكشف عن خصالهم وأحوالهم ، وإبرازها فى معرض المحسوس المشاهد مبالغة فى البيان والإيضاح ..

فالفصل بين هذه الآية الكريمة (**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا**) وما تقدمها ، لكمال الاتصال ، لأنها منزلة مما قبلها منزلة عطف البيان ، اذ هى كاشفة وموضحة ومبينة ، بل بها زيادة فى الكشف والإيضاح والتبيين لما سبق ذكره من أحوال المنافقين ، فقد جلت هذه الأحوال وبينتها فى صورة محسوسة مشاهدة عن طريق ضرب المثل •

والمراد بالمثل : الحال العجيبة ، أو الصفة الغريبة ، أو القصة ذات الشان ،على سبيل الاستعارة ، كأنه قيل : صفتهم الغريبة ، وحالهم العجيبة الشأن ، كحال رجل استوقد نارا ، استعير لفظ (المثل) لهذه الحال أو لتلك الصفة أو للقصة الغريبة العجيبة الشأن ..

ومجىء المثل بهذا المعنى كثير فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولنقرأ الآيات : « **ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع ... مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار .... الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ..** »(٤٤) وفى الحديث (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ... مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ... مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ..) فالمراد بالمثل فى مثل هذه الآيات والأحاديث: الصفة الغريبة ، أو الحال العجيبة ، على سبيل الاستعارة ..

مثل الله عز وجل حال المنافقين فى حيرتهم وتخبطهم وقلقهم واضطرابهم بحال الذى استوقد نارا ليستضىء بها ، وما كاد ضوء النار يبدو ويضىء له ما حوله ، حتى خمد ، حيث ذهب الله بنورهم، فبقوا متخبطين متحيرين ، فى ظلمات يعمهون لا يبصرون .

والتشبيه فى الآية تشبيه مركب ، اذ المراد تشبيه حال المنافقين وما يدور بخلدهم من قلق ، وما يعتريهم من اضطراب ، وما يعيشون فيه من حيرة وتخبط ، وتلك هيئة مركبة ، شبهت بهيئة أخرى ؛ وهى حال المستوقد الذى استوقد نارا ليستضىء بها ، فكان من شأنه ما وصف الله عز وجل ..

وعندما نمعن النظر فى الصياغة نجد أن : التعبير بالفعل

---

(٤٤) الآيات بالترتيب : الفتح : ٢٩ ، محمد : ١٥ ، النور : ٣٥ .

(استوقد) يدل على شدة حاجته إلى النار ، وأنه متلهف لها باذل أقصى جهده للحصول عليها ، وهذا ينبىء بمدى خوفه وقلقه ، وإحاطة الظلام به ، وتطلعه إلى أدنى نار تكشف ما أحاط به من ظلام ، وتبث الطمأنة ، وتذهب الخوف ، ولذا وردت (نارا) نكرة للدلالة على التقليل ، فهو متلهف إلى نار قليلة تضىء له إضاءة ما ..

وقيل إن التنكير يدل على التعظيم ، لأن النار التى استوقدها المستوقد أضاءت ، والإضاءة أعم وأكثر إشعاعا من الإنارة ، ثم إنها قد أضاءت جميع الجهات ، حيث قال : (ما حوله) ليدل على أن الإضاءة ، قد أحاطت به ، وأضاءت جميع جاهته ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت النار عظيمة هائلة ...

وأرى أن هذا القول أولى بالقبول لتلاؤمه مع السياق ، ودلالته على المبالغة فى الأسى والتحسر الذى أصاب المستودق ، إذ بدت النار عظيمة ، أضاءت كل الكون من حوله ، ثم خمدت فجأة ، وذهب الله بها كلية ، مع حاجته الشديدة إليها ورغبته الملحة فى استبقائها ، وهذا مما يزيد تحسره ويضاعف أساه ..

والتعبير بلما فى قوله (**فلما أضاءت ما حوله**) يدل على سرعة الزوال ، فما كاد الضوء يبزغ حتى زا لوخبا ، وذهب الله به ، والنور قد سطع شديدا ، وبدد الظلام من كل جانب ، ولذا عبر عنه بقوله (أضاء) والإضاءة فرط الإنارة ، قال تعالى : « **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا** »(٤٥) وجعل الإضاءة تشمل جميع الجهات ، فقال (ما حوله) والحول يدل على الدوران والإطافة ، ومع ذلك فقد خبا الضوء وخمد ، وذهب الله به ذهابا تاما فور ظهوره فلم يبق للمستوقد أى نور ، وهذا ما يبعث الأسى والحسرة كما قلت .

---

(٤٥) سورة يونس آية : ٥ .

فالضـياء بزغ شـديدا عم كل الجهـات - كما أوضحنا - واختفى سـريعا اختفاء تاما ، على الرغم من شدة الاحتيـاج إليـه ، ومما يصور الاختفـاء التـام قوله تعـالى : (**ذهب الله بنـورهم**) فالذهاب قد أسند إلى الله ، ثم قال : ذهب به ، ولم يقـل : أذهبـه ، و (ذهب به) أبلغ لإفادتها المصـاحبة ، ولم يقـل : ذهب الله بضوئهم ، بل (بنـورهم) لأن الضـوء فيـه دلالة على الزيادة ، ولو قيـل : ذهب الله بضـوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة دون أصـل النـور ، والغـرض إزالة النـور عنهم رأسـا ، وطمسه ، أصـلا ، مبالغـة فى حلول الظلام ..

وكذا قـوله تعـالى : « **وتركهم فى ظلمـات لا يبصـرون** » فترك هنا بمعنى : جعـل ، أى : صـيرهم وجعلهم فى ظلمـات ، لأنهـا إذا تعدت لمفعول واحد كانت بمعنى : طرحه وخـلاه ، وإذا تعـدت لمفعولين كانت متضمنة معنى التصـيير والجعـل ، قال عنترة :

فتركته جـزر السـباع ينشـنه ... ما بين قـلة رأسـه والمعصم(٤٦)

وما فى الآية من الثـانى ، فهى مضمنة معنى التصـيير والجعل ..

وقد جمعت (ظلمـات) ونكرت ووصفت بقوله : (لا يبصـرون) وذلك للتهويل والإبهـام ، فهى ظلمـات مبهمة مهولة ، تراكم بعضهـا فوق بعض ، وأطبقت عليهم فاختطفت أبصـارهم ، فصاروا لا يبصرون .

ومفعول (لا يبصـرون) محـذوف ، وهـذا الحذف من قبيـل الطـرح الذى لا يلتفت إلى إخطـاره بالبـال ، وليس من قبيـل المقدر المنـوى ، وكأن الفعـل صـار غير متعد أصلا ، والمعنى : تراكمت عليهم الظلمـات فاختطفت أبصـارهم ، فلم يعودوا من أهل الإبصـار ..

---

(٤٦) جزر السباع : اللحم الذى تأكله لأنها تجـزره بأنيابها ، والنوش : التناول السهل ، والمعصم : موضـع السوار من الساعد .

وبهذا يتضح لنا كيف يولغ فى تصوير حلول الظلام بهم ، وذهاب الضوء الذى لم يكد يرى حتى خبا وخمد ، وذهب الله به ، فصاروا فى ظلمات ، وصاروا لا يبصرون ..

وجواب (لما) فى قوله تعالى : **(فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم)** إما أن يكون قوله (ذهب الله بنورهم) ، وإما أن يكون محذوفا ، وتقديره : فلما أضاءت ما حوله خبت وخمدت ، فصاروا فى ظلام يتخبطون متحسرين على فوت الضوء الذى تعبوا فى استيقاده ، وعندئذ يكون قوله (ذهب الله بنورهم) جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، وكأن سائلا سأل : لم خمدت النار فجأة ، وحل الظلام سريعا ، بعد ظهور الضوء الذى كدوا فى استخراجه ؟ فيأتى الجواب : لأن الله ذهب بنورهم ..

ويصح أن يكون الفصل لكمال الاتصال ، على أن جملة (ذهب الله بنورهم) مبينة لجملة التمثيل ، منزلة منها منزلة البدل ..

والتشبيه ـ كما ذكرت ـ تشبيه مركب ، مثلت فيه حال المنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب ، وحيرة وتخبط ، يلوح لهم نور الإيمان حينا عندما يجرون كلمة الإسلام على ألسنتهم ، ولكن النور سرعان ما يذهب لتمكن الكفر من قلوبهم ، مثلت هذه الحال العجيبة بحال المستوقد الذى كد فى استيقاد النار لحاجته إلى الضوء ، وما كاد الضوء يبدو ويلوح له حتى ذهب ، فصار فى ظلام لا يبصر ، ووجه الشبه هو الوقوع فى حيرة الحرمان والخيبة بعد ظهور تباشير الرجاء .

وفصل قوله تعالى : **(صم بكم عمى)** عما قبله للاستئناف البيانى ، وكأن سائلا يسأل عند سماع قوله تعالى : **(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا)** ، فقال : لم صاروا فى هذه الحيرة وذاك الاضطراب؟

ولمــاذا كان تخبطهم فى الضــلال حتى شبهــوا بما شبهــوا به ؟ فجــاء الجواب : لأنهم سدوا عن الإصــاخة للحق مسامعهم ، وأبوا أن ينطقــوا به ألسنتهم ، وأن يبصــروه باعينهم ، وكان وســائل إدراكهم قــد إيفت - كما يقول الزمخشرى - أى : أصيبت بآفة ، وتعطلت وانتقض بناؤها ، فصــاروا صما بكما عميــا ..

والآية من قبيــل التشبيه البليــغ ، وهو ما حذفت أداته ووجهــه كقولهم : هم ليوث ، وهم بحور ، ولا يقال : إن المشبه فيهــا محذوف ، قد طوى عن الجمــلة ، لأن حــذفه على نيــة التقدير ، فهو فى حــكم المنطوق به ، ونظيره قول عمــران بن حطان يخاطب الحجاج :

أســـد على وفى الحــروب نعــامة
فتخــاء تنفــر من صفــير الصـــافر
هــلا برزت إلى غـــزالة فى الوغى
بل كان قلبـــك فى جنــاحى طــائر(٤٧)

والتقــدير : أنت أسد على ونعــامة فى الوغى .

وقد خلط بعض العلمــاء هذا التشبيه البليــغ بالاستعارة ، فادخلوه فيهــا ، وعدوه منهــا ، نظــرا لمــا يفيده من المبالغــة ، ولكن المحققين أبقوه فى دائرة التشبيه ، إذ الاستعــارة ، إنما تطلق عندما يطوى ذكــر المستعار له ، ويجعــل الكلا خــلوا منه ، كقولك : رأيت ليوثا تحــارب وبحــورا تتصــدق(٤٨) .

---

(٤٧) فتخاء : مسترخية الجناحين ، وهى صفة لازمة للنعامة ، وغزالة : هى امــرأة شبيب الخارجى ، ويقال : إنها دخلت الكوفة فى ثلاثين فارســا ، وفيهــا ثلاثون ألف مقــاتل ، فصلت الفجــر ، وقــرأت البقــرة .

(٤٨) ارجع إلى كتابنا : دراسيات بلاغية ٩٧ .

وقوله تعالى : (**فهم لا يرجعون**) تقدم المسند إليه (هم) على خبره الفعلى ، فأفاد توكيد نفى الرجوع ، لأنهم قد طبع على قلوبهم ، وصاروا صما بكما عميا ، فأنى لهم الرجوع إلى الهدى وقد باعوه واشتروا الضلالة ، وأنى لهم التخلى عن الضلال وهم فيه يتخبطون لا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون ..

« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير »

ثنى - عز وجل - بتمثيل آخر فى شأن المنافقين ، ليكون كشفا لحالهم بعد كشف ، وإيضاحا بعد إيضاح ، لأن المقام مقام تفصيل ، يقتضى الإشباع ، للكشف عن خصال هؤلاء المنافقين ، وتجلية حقيقة أمرهم ..

وقد أوثر فى عطف أحد التمثيلين على الآخر التعبير بالحرف (أو) دون الواو ، للدلالة على صحة التشبيه بكل واحدة من القصتين منفردة ، وبهما معا ، ولو عطف بالواو لربما أوهم صحة التشبيه بمجموعهما فقط ، دون التشبيه بكل واحدة منهما منفردة ، فالعطف بـ (أو) جعل القصتين سواء فى استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل ، فبأيتهما مثلت فأنت مصيب ، وإن مثلت بهما جميعا فأنت مصيب أيضا (٤٩) .

والتمثيل هنا أيضا من قبيل التمثيلات المركبة كالتمثيل السابق ،

---

(٤٩) ومرجع ذلك إلى أن (الواو) لمطلق الجمع ، و (أو) للدلالة على التسوية .

لأن المـراد تشبيه هيئة حاصـلة من مجموع أشياء ، قد تضامت وامتزجت حتى صـارت شيئا واحدا ، بهيئـة أخـرى مثلهـا ، فقد مثلت حـالة المنافقين وهم يتخبطون فى الضـلال ، وقد أصـابتهم الحيرة والدهشة ، واشتد عليهم الأمـر ، بحـال من يكابد فى ظلمـة الليـل وقد أطفئت ناره ، بعد إيقـادها ، ثم مثلت هنا فى هـذا التشبيه بحال من أخذتهم السماء فى الليـلة المظلمـة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

وفى إيثار التعبير بكلمة (صيب) دون المطر أو الوابل ، وتنكيرها دلالة على التهويل ، لأنه أريد نوع من المطـر شديد هائل يصيبهم ، وكأن لفظ (صيب) يصـور صـورة الانصـباب عليهم تهويلا وتفظيعـا ، ثم ذكـر جهـة الانصباب (من السـماء) والصيب لا يكون إلا من جهتهـا مبالغـة فى التهـويل ، كما فى قـوله تعـالى : « **فخـر عليهم السقف من فـوقهم** »(٥٠) وخـرور السقف لا يكون إلا من فوق ..

ومجىء لفظ (السـماء) معـرفة يدل على أن الصيب يصيبهم من غمام مطبـق ، آخـذ بآفاق السماء ، وليس يتصوب من أفق واحـد من بين سـائر الآفاق ، لأن كل أفق من آفاقهـا سماء ، فالصيب يطبـق عليهم من جميـع الآفـاق ..

ثم نـكرت هـذه الألفـاظ (ظلمـات ورعـد وبرق) للدلالة على أنها أنواع لا تدرك ولا يحـاط بها ، وكذلك جمعت الظلمـات للدلالة على تكاثفها وتراكمها ، لأنها ظلمـات تكونت من ظلمـة الليل ، وظلمة إظلال الغمـام ، وظلمـة تكاثف المطـر وانتساجه بتتابع القطـر ، فهى ظلمات تراكم بعضاها فوق بعض ، ولذا جمـع لفظ (ظلمـات) وأفـرد لفظى (رعـد وبرق) إذ ليس فيهمـا ما فى الظلمـات من التكاثف والتراكم والتداخـل .

---

(٥٠) النحـل : ٢٦ .

وهكذا يتضح لك ما فى التعبير من مبالغات فى التصوير ، تبعث الهول ، وتثير الرعب والخوف ، ولا يجد المنافقون ما يتقون به هذه الأهوال إلا أن يجعلوا أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت .

قالوا : إن المراد بقوله تعالى : (أو كصيب) : أو كمثل ذوى صيب ، فحذف المضاف ، والذى أحوج إلى هذا التقدير أن المعنى على تصوير حال المنافقين بحال قوم أخذتهم السماء على الصفة المذكورة ، فلقوا منها ما لقوا .

وهذا يختلف عن تشبيه أعمال الكفار فى قوله تعالى : « **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ...** »(٥١) .

لأن التشبيه هنا فى سورة (النور) تشبيه لأعمال الكفار ، ولذا لم يحتج إلى تقدير فى التشبيه الثانى (أو كظلمات) ، أما التشبيه فى سورة (البقرة) ، فهو تشبيه لأحوال المنافقين بحال من أخذتهم السماء ـ كما ذكرت ـ ولذا احتاج المعنى إلى تقدير مضاف فى التشبيه الثانى (أو كصيب) .

وفصل قوله تعالى : (**يجعلون أصابعهم فى آذانهم**) عما قبله لشبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البيانى ، لأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهول من الظلمات والرعد والبرق ، فكأن قائلا سأل : فكيف كانت حالهم مع هذه الأهوال ؟ فجاء الجواب : (**يجعلون أصابعهم فى آذانهم**) .

---

(٥١) النور : ٣٩ ، ٤٠ .

وفى (أصـابعهم) مجـاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الأصابع وأراد الأنامـل ، وذلك للمبالغـة فى سـد الآذان خـوفا ورعبا ، ومن المعـلوم أن الذى يسد الأذن أصبع خاصـة ، هى السبابة ، ولكنه عـدل عنها وذكـر الاسـم العـام (الأصـابع) لغـرضين :

الأول : أن السبابة فعـالة من السب ، فكان اجتنابهـا أولى بآداب القـرآن ، ولذا فقد استبشعوها وكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة ..

الثـانى : أنه لا يلزم أن يسدوا مسـامعهم فى تلك الحال بالسبابة ، لأنهم فى حال حـيرة ودهشـة ، فأى أصبع اتفق لهم أن يسـدوا بهـا فعـلوا دون مراعاة المعتاد فى ذلك ، إذ المقـام مقام حيرة ودهشة .

وفى ذكـر (الصواعق) والحذر من الموت ، فى قوله تعـالى : (**من الصواعق حـذر المـوت**) تعليـلا لجعـل الأصـابع فى الآذان ، مما يدل على شدة الهول وفـرط الرعب والخوف ..

وقوله تعـالى : (**والله محيط بالكافـرين**) جملة اعتراضية الغرض منهـا : التنبيه على أن الحذر من الموت لا يفيد ، لأن الله محيط بهم ، وقد وضـع الاسم الظاهر (الكافرين) موضـع الضمير ، إذ الأصـل : والله محيط بهم ، وذلك للدلالة على أن أصحاب الصيب كفار ، فيظهـر عندئذ استحقاقهم ما وصف من شدة الأهـوال وفرط الرعب ، لأن الإهلاك الناشىء عن السخط أشد ..

وجعـل بعضهم هذه الجمـلة الاعتراضية من أحوال المشبه ، على أن المـراد بالكافرين : المنافقون ، وهى تدل على أنه لا مدفـع لهم من عـذاب الله فى الدنيـا والآخـرة ، وقد وسطت بين أحـوال المشـبه به تنبيها على شدة الاتصال بينهما ، ودلالة على فرط الاهتمام بشأن المشبه .

وإحـاطة الله تعـالى بالكافرين مجـاز ، إما استعارة تبعيـة فى

لفظ (محيط) حيث شبه شمول قدرته تعالى إياهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به ، ووجه الشبه امتناع الفوت فى كل ، واشتق من الإحاطة محيط بمعنى : شامل القدرة ..

وإما استعارة تمثيلية حيث شبهت حاله تعالى معهم ، وقدرته عليهم ، بحال المحيط مع المحاط به ، أى : شبه هيئة منتزعة من عدة أمور بأخرى مثلها ، واستعيرت هيئة المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ..

وفصل قوله تعالى : (**يكاد البرق يخطف أبصارهم**) عما قبله للاستئناف البيانى، وكأن سائلا يسأل : فكيف كانت حالهم معهذه الأهوال، ومع مثل ذلك البرق ؟ فأجيب : (**يكاد البرق يخطف أبصارهم**) .

وكذا الفصل بين جملتى (يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ...) لأن الأولى منهما تضمنت سؤالا فحواه : كيف يصنعون فى حال خفوق البرق وفى حال اختفائه ؟ فأجيب : (**كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا** ...).

ووراء التعبير بكلمتى (كلما) و (قاموا) معنى لطيف وتصوير دقيق ، فمع أن البرق يكاد يخطف أبصارهم إلا أنهم يحاولون ، ولديهم رغبة قوية فى التخلص من هذا الموقف الصعب ، فكلما أضاء البرق لهم ممشى مشوا فيه مع خطورة المشى ، ولذا لم يقل : سعوا فيه ، أو عدوا فيه ، لأنهم يخطون فى حذر من تخطف أبصارهم ، والسعى والعدو لا يناسب كل منهما مقام الحذر ، وإذا أظلم عليهم قاموا واستعدوا للانطلاقة عندما تحين الفرصة ، ففى القيام تأهب وتهيؤ ..

والفعل (أضاء) إما متعد حذف مفعوله ، والتقدير : كلما أضاء لهم ممشى مشوا فيه ، وإما لازم بمعنى (لمع) وكذا الفعل (أظلم) إما متعد والتقدير : أظلم عليهم مكانهم ، وإما غير متعد وهو الظاهر ..

واستخدام (كلما) مع الإضاءة يشعر بحرصهم على المشى ، فكلما صادفوا فرصة انتهزوها ، وليس كذلك التوقف عند الإظلام ، ولذا استخدم معه (إذا) ثم قال (قاموا) فدل على تأهبهم وتهيئهم للوثبة الجديدة عندما تحين فرصتها لأن (قام) تدل على الوقوف والثبوت مع تحفز وتأهب كما يقال : قامت الحرب على ساقها ، وأقام الصلاة ، وقام بهذا الأمر وقام عليه .

وفى قوله تعالى : **(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم)** حذف مفعول المشيئة لدلالة جواب الشرط عليه ، والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، والسر البلاغى لهذا الحذف هو البيان بعد الإبهام ، وللبيان بعد الإبهام أثر طيب ووقع فى النفس ، لأن الشىء عندما يبهم تتطلع النفس وتتشوق إلى معرفته ، فعندما يجىء البيان يقع فى النفس موقعه ، إذ جاءها وهى متطلعة إليه ، مترقبة له ..

وقد كثر حذف مفعول المشيئة والإرادة ، فلا يكاد يذكر إلا إذا كان غريبا ، كما فى قوله تعالى : « **لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين** »(٥٢) ، وقوله عز وجل : « **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء** »(٥٣) ، وكما فى قول أبى الهندام الخزاعى فى الرثاء :

قضى وطرا منك الحبيب المودع
وحل الذى لا يستطاع فيدفع
ولو شئت أن أبكى دما لبكيته
عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

---

(٥٢) الأنبياء : ١٧ .
(٥٣) الزمر : ٤ .

فإن اتخاذ اللهو والولد وبكاء الدم مما يستغرب ، ولذا لزم ذكره والتصريح به ، اعتناء بشأنه ، ولا يكتفى فيه بدلالة الجواب عليه ، لذهاب الوهم إلى غيره، بناء على استبعاد تعلق الفعل به عندئذ لغرابته..

وقد مر بنا السر البلاغى وراء إفراد السمع وجمع الأبصار عند حديثنا عن الآية الكريمة « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** »(٥٤) فعد إليه هناك ..

وختام الآية الكريمة بقوله تعالى : (**إن الله على كل شىء قدير**) يتناسب مع ما ذكر فى الآيات من تصوير لحال المعاندين ، وما يصيبهم من شدة الهول ، وفرط الرعب ، لكفرهم وعنادهم ، وهذا ما يعرف فى البديع بتشابه الأطراف ، وقد وضع الاسم الظاهر (لفظ الجلالة) موضع الضمير ، إذ الأصل أن يقال : إنه على كل شىء قدير ، لتقدم ذكره عز وجل فى قوله : (**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم**) والسر البلاغى وراء هذا العدول تربية المهابة ، وإبراز القدرة بالإسناد إلى صريح الاسم الجليل ، إذ ليس الإسناد إلى الضمير كالإسناد إلى الاسم الظاهر .

هذا وقد ذكر الزمخشرى - رحمه الله - أن التشبيه الثانى (أو كصيب) أبلغ من التشبيه الأول (**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا**) لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ، ولذا أخر ، وهم يتدرجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ(٥٥) ..

ومرجع ذلك إلى تضاعف العناصر ، التى تصور الحيرة والشدة ، من الصيب والظلمات والرعد ، والبرق الذى يكاد يخطف الأبصار ،

---

(٥٤) البقرة : ٧ .
(٥٥) الكشاف ٢١٣/١ .

والصـواعق المخيفـة التى تجعلهم يبالغـون فى سد مسـامعهم خـوفا من المـوت ٠

وعندما نقول : إن هذا التشبيه أبلغ من ذاك ، فإننا نريد : المبالغة : أى : أن كلمـة (أبلغ) مأخوذة من المبالغـة ، لا من البلاغة ، والمقـام هو الذى يقتضى تلك المبـالغة ـ وكما قال الزمخشرى : هم يتدرجون فى مثـل هذا من الأهون إلى الأغلظ ـ حيث اقتضى المقـام ذلك التدرج ٠

وعندما نمعن النظـر فى عناصر الصـورة الثانية (أو كصيب) نراها تحمـل الخير والشر ، فالصيب فيه الرعد والبرق ، والرعد والبرق قـد يكون خيرا ، ويسفر عنـه الغيث النافـع ، وقد يكون شرا وصواعق مهلكة ، ولذا كان العـربى يعد سبعين برقة وينتجع فلا يخطىء الغيث والكلأ ، وإلى هـذا أشـار المتنبى بقوله :

وقـد أرد الميـاه بغـير هـــاد ... سـوى عـدى لهـا برق الغمام

والذين أعرضـوا عن الإيمان ، وظلوا فى ظلمـات الحيرة يهلكون أنفسهم ، والذى يهلكهم كان فيـه النفـع والخير ، لو تنبهوا له وحصلوه وحرصوا عليه ، ولكنهم اشـتروا الضـلالة بالهدى الذى كان بين يديهم ، فما ربحت تجـارتهم وما كانوا مهتدين ٠

* * *

(٢)

قـال تعـالى : « يأيهـا الذين آمنـوا لا تأكـلوا الـربا أضـعافا مضـاعفة واتقـوا الله لعلـكم تفلحـون • واتقـوا النـار التى أعـدت للكافـرين • وأطيعـوا الله والرسـول لعلـكم ترحمـون • وسارعوا إلى مغفـرة من ربكم وجنـة عرضها السموات والأرض أعـدت للمتقـين • الذين ينفقـون فى السـراء والضـراء والكاظمين الغيظ والعـافين عن النـاس والله يحب المحسـنين • والذين إذا فعـلوا فاحشـة أو ظلمـوا انفسهم ذكـروا الله فاستغفـروا لذنوبهم ومن يغفـر الذنوب إلا الله ولم يصـروا على ما فعـلوا وهم يعلمـون • أولئـك جـزاؤهم مغفـرة من ربهم وجنـات تجـرى من تحتهـا الأنهـار خـالدين فيهـا ونعم أجـر العـاملين • قد خلت من قبلكم سنن فسـيروا فى الأرض فانظـروا كيف كان عاقبة المكذبين • هـذا بيـان للناس وهـدى وموعظـة للمتقـين • ولا تهنـوا ولا تحـزنوا وأنتم الأعـلون إن كنتم مؤمنـين • إن يمسسـكم قـرح فقد مس القـوم قـرح مثـله وتلك الأيام نداولهـا بين الناس وليعلم الله الذين آمنـوا ويتخـذ منـكم شهداء والله لا يحب الظالمين • وليمحص الله الذين آمنـوا ويمحـق الكافـرين • أم حسـبتم أن تدخـلوا الجنـة ولمـا يعـلم الله الذين جـاهدوا منـكم ويعـلم الصـابرين • ولقد كنتم تمنـون الموت من قبـل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون • وما محمد إلا رسـول قد خلت من قبـله الرسـل أفإن مـات أو قتـل انقلبتم على أعقـابكم ومن ينقلب على عقبيـه فلن يضـر الله شيئـا وسيجـزى الله الشـاكرين • ومـا كان لنفـس أن تمـوت إلا بإذن الله كتـابا مؤجـلا ومن يرد ثواب الدنيـا نؤته منهـا ومن يرد ثواب الآخـرة نؤته منهـا وسنجـزى الشـاكرين »(١) •

---

(١) آل عمـران : ١٣٠ ـ ١٤٥ •

بدأت هـذه الآيات الـكريمة بالنـداء للتنبيـه وإيقـاظ المشـاعر والأحاسيس ، وقد أوثر حـرف النداء (يا) الموضوع لنداء البعيـد ، والله عز وجل أقـرب إلى عبـاده من حبل الوريد ، للإيذان بأن الخطاب الذى يتـلوه معنى به جـدا ، فإن نداء القـريب قد وضـع له (أى) والهمـزة ، فإذا استخدم فى ندائه (يا) فقد يكون ذلك للتنبيـه على أنه قد سها وغفـل ، فنزل لغفلتـه منزلة البعيد ، وقد يكون فطنا غير غافل ، ولكن الأمـر الآتى بعد النداء من الأمـور المهمة المعنى بهـا ، فتستخدم (يا) لتنبـه إلى ذلك وتلفت إليـه ، كما فى الآية الكريمة ، وقد كثر فى القـرآن الكريم النداء على هـذه الطـريقة ، لأن كل ما نادى الله له عبـاده من أوامـر ونواه ، وعظـات وزواجر ، ووعد ووعيد ، ونحو ذلك مما أنطق به كتابه ، أمور عظام ، ومعـان ينبغى أن يتيقظوا لهـا ، ويميـلوا بقلوبهم وبصـائرهم إليهـا (٢) ..

و (أى) : وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام ، وهو الذى يعمل فيـه حـرف النداء والاسم التـابع له صفتـه ، وهو لا ينفـك عنهـا ، ولا يستقل بنفسـه ، لمـا فيه من إبهـام تجليـه هـذه الصفة ، وفى هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التوكيد والتنبيه ..

و (هـا) كلمـة تنبيـه مقحمـة بين الصفـة وموصوفها ، وهى تقـوى حـرف النداء (يا) لتقـاربهما فى المعنى ، فحـرف النداء فيه تنبيه وإيقاظ للمدعـو ، وحـرف التنبيـه (ها) مما يقوى ذلك الإيقاظ ويؤكـده .

كما أنها تقـع عوضـا عما يستحقه (أى) فإن (أيا) حقـه أن يضـاف ، كما فى قوله تعـالى : « **ثم لننزعن من كل شيعـة أيهم أشـد على الرحمـن عتيـا** »(٣) .

---

(٢) انظر الكشاف ١/٢٢٦ .
(٣) مـريم : ٦٩ .

وكما فى قول النابغـة الذبيانى :

ولست بمستبق أخـا لا تلمـــه   على شعـث أى الرجـال المهـذب

أو تنوين يقوم مقـام المضـاف إليــه ، كما فى قوله تعــالى : « **قل ادعــوا الله أو ادعــوا الرحمن أيا ما تدعــوا فله الأسماء الحسنى** »(٤) ولا مجــال هنـــا للتنوين بسبب بنـــاء (أى) للنــداء ، فجعلت كلمـة التنبيــه (ها) المناسبة للنداء عوضا عن المضاف إليــه ..

وبعد أن نبــه النداء وأيقظ المشــاعر وهيأ النفوس للتلقى : توالى النهى والأمــر : « لا تأكلوا الربا .. واتقــوا الله ... واتقــوا النــار .. وأطيعــوا الله والرســول ... وســارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة .. » والنفوس عندما تتلقى هــذه الأوامــر والنواهى ، وهى مهيــأة يقظـة يكون ذلك أدعى للقبول والإجابة وسرعة الامتثال ..

وفى تقديم النهى عن الربا على تلك الأوامــر المذكــورة ، إيذان بشدة خطــره ، ومبالغة فى تحــريمه وحظره ، لأنه كان شائعا إذ ذاك ، ولذا خص بالنهى هنـــا دون غيره من ســائر ما نهى عنــه فى مواضــع أخــرى من آيات الذكــر الحكيم ..

وقد أوثر فى النهى عن الربا التعبير بالأكل : (لا تأكلوا الربا) دون غيره من أنواع الأخــذ والتنــاول ، ووجوه التصرف الأخــرى ، لأن الأكل أكثــر وجــوه الإنفــاق ، كما أنه الصفــة المشــتركة بين الإنســان والحيوان ، ولكن الحيوان يأكل كل ما يقــع عليــه دون نظــر إلى كونه من حقــه أو من حق غيره ، وأما الإنســان فلا يأكل إلا ما كان من حقه ، فإذا ما انهــدم هــذا الفــرق وصــار الإنســان يأكل ما هو له ، وما هو من حق غيره ، فقد تدنى إلى مرتبــة الحيوان ، وصــار كالأنعام التى

---

(٤) الإســراء : ١١٠ .

فقدت التمييز ، ولذا كان فى التعبير بالأكل دون غيره زيادة فى التشنيع والتقبيح ..

ونجد ذلك شائعا فى آيات الذكر الحكيم التى تناولت تحريم الاعتداء على أموال الغير ، ولنقرأ (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل .. وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ... إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا ... الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ... »(٥) .

فالمراد النهي عن الاعتداء على أموال الغير بأى وجه من وجوه الاعتداء ، وقد عبر بالأكل خاصة للدلالة على التفظيع والتنفير ، وزيادة في التشنيع والتقبيح ، إذ العربي يتذمم بملء البطن ، وكثرة الأكل ، ويعد ذلك من البهيمية ..

وقد قيد النهي عن الربا بكونه أضعافا مضاعفة ،ولا يعني تقييد النهي عن أكل الربا بذلك القيد (أضعافا مضاعفة) أن اصل الربا غير منهي عنه ، وأنه اذا لم يكن أضعافا مضاعفة جاز أكله ، وانما المراد النهي المطلق ، وقد جيء بالقيد للتنفير والدلالة على التبشيع ، وهذا شائع فى كلامهم ، يقولون : لا تضيع حق جارك الصالح ، لا تضيع دينك بكسرة خبز ، وهم لا يريدون بذلك اباحة تضييع حق الجار غير الصالح ، وجواز إضاعة الدين إذا غلا ثمنه ، وإنما يريدون حث المخاطب على التمسك بدينه ، وحفظ حقوق جاره مطلقا ، وقد جيء بالقيد ليكون المخاطب أكثر استجابة وأسرع انقيادا ، لما في التقييد من تقبيح يدعو إلى النفور والابتعاد وسرعة الاستجابة ..

---

(٥) الآيات بالترتيب : البقرة ١٨٨ ، النساء ٢ ، ١٠ ، البقرة ٢٧٥ .

ولنتأمل قوله تعــالى : « **ولا تكرهــوافتياتكم على البغــاء إن أردن تحصــنا ..** »(٦) .

وقــوله عــز وجــل : « **وآتــوا اليتــامى أمــوالهم ولا تتبــدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا** »(٧)

وقوله جــل وعـــلا « **فإن آنســتم منهم رشـــدا فادفعــوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ..** »(٨) .

وقوله عــز من قائل : « **وإذا حضر القســمة أولوا القــربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منــه وقولوا لهم قــولا معروفا** »(٩) .

نجد أن هــذه الآيات قد قيد النهى فيها ـ والأمر فى الآية الأخيرةـ بقيــد ، والغــاية المقصــودة من القيــد التشـــنيع والتنفــير ، وليس المراد وقف النهى والأمر على القيــد الذى قيــد به الفعل المنهى عنــه ، أو المأمــور به .

ففى آية ســورة النور ، عبر بالإكراه (لا تكرهــوا) والمراد النهى عن البغــاء ســواء أكان عن طريق الإكــراه للفتيات أو بإقبالهن طواعية ، ثم جىء بهــذا القيد (إن أردن تحصــنا) والفتــاة لا تكره على البغــاء إلا عنــد ارادتهــا التحصن والتعفف ، فالقيد تأكيد للإكراه المنهى عنه ، وفيــه مزيد من التفظيع والتنفير ، وإبراز للصــورة فى أبشع صورها ، فتــاة تتعفف وتتحصن ، وسيد يكرهها على البغــاء ، صورة تستبشعها النفوس المؤمنــة وتأباها النفس الكريمة ، فتمتثل وتسرع بالإجـــابة ، وذلك هو المقصــود والمرجو من التقييد ..

---

(٦) النــور : ٣٣ .
(٧) النســاء : ٢ .
(٨) النســاء : ٦
(٩) النســاء : ٨ .

وقل مثـل هذا القول فى تقييـد النهى عن أكل أموال اليتـامى بقوله تعـالى « إلى أمـوالكم ٠٠٠ إسرافا وبدارا أن يكبروا » وفى تقييد الأمـر بالعطـاء وقول المعروف فى قوله : (فارزقوهم منـه وقولوا لهم قولا معروفا) بحضـور القسمة (وإذا حضر القسمة) فهم يعطون ويقال لهم المعروف ســواء حضروا القسمة أو لم يحضروا ، ولكن التقييـد بالحضور فيـه حث للوارث على عطائهم ودفع قوى له لترضيتهم٠٠(١٠)

عرفنا أن أسلوب النـداء فى الآية الكريمة (**يأيهـا الذين آمنوا**) قد نبـه وأيقظ ، وهيأ الأنفس لتلقى ما يلقى إليهـا من أمور مهمـة ، وقد جـاء بعـد هذا التنبيـه الموصول وصلته (الذين آمنـوا) فجـلى مـا فى (أى) من إبهـام وأوضحه - كما ذكرنا - وللايضاح بعد الإبهام أثر ووقع فى النفس ، إذ فيه توكيد وتقرير للمعنى ٠٠

كما أن وسمهم بالإيمان ونداءهم به ، فيه تذكير لهم بأصـل العقيدة وحث لهم على أن يتمسكوا بهـا ، ويحرصوا على تحصيل مـا يحـقق لهم ذلك ، ويجعلهم له أهـلا ، وعنـدئذ يقبلون على ما يلـقى إليهم ويجدون فى تحصيله وتحقيقه ٠٠٠

وبعـد أن هيئت النفوس هـذه التهيئة ، وكان مـا رأيت من حث وإيقـاظ وتنبيـه ، وأصبحت النفوس مهيأة للإصغاء ومتطلعة لمـا سيلقى إليهـا ، توالت هـذه الأسـاليب : (**لا تأكلوا الربا أضـعافا مضـاعفة واتقـوا الله لعلكم تفلحـون ، واتقـوا النـار التى أعـدت للكافرين ، وأطيعـوا الله والرسـول لعلكم ترحمون ، وسـارعوا إلى مغفـرة من ربكم وجنـة ٠٠**) وهى أسـاليب إنشـائية - كما ترى - بدأت بالنهى (لا تأكـلوا) ثم عطفت عليـه تلك الأوامـر (اتقـوا الله ٠٠٠ اتقـوا النـار ٠٠٠ أطيعوا الله والرسـول ٠٠٠ سـارعوا ٠٠٠) فالوصـل بين

---

(١٠) ارجع إلى علم المعـانى جـ ٢ ص ١١٠ ٠

هـذه الجمل للتوسط بين الكمالين ، مع عدم المانع من الوصل ، ووجود المناسبة المسوغة له ، حيث اتفقت فى كونها إنشائية لفظـا ومعنى ..

وقد اقترن الرجـاء بالأمر فى قوله تعـالى : **(واتقـوا الله لعلكم تفلحون)** . وفى قوله عز وجل : **(وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون)**

فلعل موضوعة للترجى أو للإشـفاق ، بمعنى أنهـا موضوعة لإنشاء توقع أمر مرغوب فيـه أو مرهوب منه . فالأول الترجى كقولك : لعـل الله يرحمنا ، والثانى الإشـفاق كقولك : لعل الساعة آتية ..

ولعـل فى الآيتين للترجى ، واقتران الرجاء بالأمر فى الموضعين يفيد أن المؤمن ينبغى أن يكون دائمـا بين الرجـاء والخوف ، يخضع لأمر الله ويستجيب له ، ويحـذر المخـالفة ، فيتجنب النهى ، وهو فى نفس الوقت يطمع فى كرم الله ، فيرجو الفلاح ، ويرجو رحمة ربه ..

وقد فصـل بين جملتى : (اتقـوا الله ، لعلكم تفلحون) وكذا بين جملتى (أطيعـوا الله والرسـول ، لعلكم ترحمون) للاستئناف البيانى المسمى بشبه كمال الاتصـال ، حيث تضمنت الجملة الأولى فى كل منهما سؤالا ووقعت الثانيـة جوابا له ، وكأن سـائلا سـأل : لم يتق المؤمـن ربه ، ويطيع الله ورسـوله ؟ مـا جزاؤه ؟ ومـا الذى يرجوه ؟ فجـاء الجواب : لعلكم تفلحون .. لعلكم ترحمون ..

ووصـفت النـار بقوله عـز وجــل : **(التى أعـدت للكافرين)** للمبالغـة فى التخويف والتحذير ، وقد قالوا : هـذه أخـوف آيـة فى القرآن ، حيث توعـد الله المؤمنين بالنار المعـدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه(١١) .

---

(١١) انظر الكشاف جـ ١ ص ٤٦٣ .

والتعبير بالفعل الماضى (أعـدت) يدل على أن النـار مخلوقة ومعدة للكفـار منذ قديم ، وكذلك الجنة ، كما سيأتى فى قوله تعـالى : **(وجنـة عرضها السموات والأرض أعـدت للمتقين)** .

وحذف الفاعل فى قوله تعالى : **(أعدت للكافرين)** لوضوحه والعلم به ، كما يدل هـذا الحذف وبناء الفعل للمفعول على تهـويل العـذاب وتفخيمه ، وينبىء بأن النار قد أعد فيها من صنوف العذاب مالا يحيط به الوصف ، ومـا يذهل أمامه العقـل ، فيشغل عمن أعـده ، ولا يتطلع إلى معرفته ، وكذا القول فى حذف الفاعل ، وبنـاء الفعل للمفعول فى قوله : (أعدت للمتقين) فهو يدل على التعظيم والتفخيم ، وينبىء بأن الجنـة قـد أعد فيها للمؤمنين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سـمعت ولا خطـر على قلب بشر ، فالمخاطب يشغله ذلك النعيم ، ويأخذه فلا يسأل عمن أعـده ، ولا يشغل به ..

وفى قوله تعـالى : **(وسـارعوا إلى مغفـرة من ربـكم وجنـة عرضـها السـموات والأرض)** عبر بالفعل (سـارع)حثا على الإقبال والمبادرة والمنافسة « **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** »(١٢) فليس المراد مجرد الإسراع ~~الجنة ذاتها ، إلى تحصيل أسبابهما ، وفى هذا من المبالغة~~ والإقبـال ، وإنمـا المـراد المنافسـة فى تحقيـق مـا أمـروا بـه وتحصيله ، وكأن المعنى : فليسـارع بعضـكم بعضا إلى ذلك الخـير وليسابق بعضكم بعضا إلى تحصيله والفوز به ..

والمسارعة المأمـور بها مسـارعة إلى تحصـيل أسباب المغفـرة ، وأسـباب الفوز بالجنة من الإيمان والأعمال الصـالحة ، فالمعنى على حـذف مضـاف ، والتقدير : سارعوا إلى أسبابهما ، وفى هـذا الحذف حث على المبادرة والامتثال ، فهو يجعل المسارعة إلى مغفـرة الله ، وإلى

---

(١٢) المطففين : ٢٦ .

الجنة ذاتها ، لا إلى تحصيل أسبابهما ، وفى هذا من المبالغة فى الحث على الامتثال ما فيه ..

ونكرت كل من المغفرة والجنة فى قوله : (إلى مغفرة من ربكم وجنة) للدلالة على التعظيم ، ويؤكد هذا المعنى - معنى التعظيم - وصف كل منهما بما وصفت به ، فقد وصفت المغفرة بأنها من الرب (من ربكم) وفى ذكر معنى الربوبية وإضافتها إلى المخاطبين إظهار لمزيد اللطف بهم ، والتجاوز عن سيئات التائبين ، وغفران ذنوبهم كما وصفت الجنة بقوله تعالى : **(عرضها السموات والأرض)** ، فهذان الوصفان يؤكدان معنى التعظيم الذى دل عليه تنكير كل من اللفظين ..

وقدمت المغفرة على الجنة فى قوله **(مغفرة من ربكم وجنة)** لأن غفران الذنوب والتجاوز عن السيئات أولى ، فالإنسان يتطلع إلى دفع ما يضره ، ويحرص على أن يتم أولا ، ثم يكون ثانيا دخول الجنة ، وهم يقولون : إن درء المضار مقدم على جلب المنافع ، والتخلية مقدمة على التحلية ..

والتشبيه فى قوله تعالى : **(عرضها السموات والأرض)** تشبيه بليغ ، حذفت أداته ، ووجه الشبه ، كما حذف المضاف فى المشبه به ، والتقدير : عرضها كعرض السموات والأرض فى السعة والبسطة ، والمراد من التشبيه وصف الجنة بالسعة والبسطة ، وقد بولغ فى هذا الوصف من عدة جهات :

١ - كون التشبيه بليغا قد حذفت أداته ووجهه ..

٢ - حذف المضاف من المشبه به ، إذ التقدير : وجنة عرضها كعرض السموات والأرض .

٣ - التعبير بالعرض دون الطول ، وقد جرت العادة بأن العرض أدنى من الطول ، فإذا كان عرضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟ والعرب كثيرا ما تصف الشىء بالعرض إذا أرادوا المبالغة فى وصفه بالسعة ، فهم يقولون : أعرض فى المكارم ، يريدون: توسع فيها وبالغ فى تحصيلها ..

(الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .

فصلت هذه الآية الكريمة عما قبلها للاستئناف البيانى ، كأن سائلا سأل عند سماعه قوله تعالى (**وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**) فقال : من هم أولئك المتقون ، الذين نالوا ذلك الشرف ، وأعدت لهم تلك الجنة ؟ وخصهم الله بهذه المنزلة ؟ فأجيب : خص الله بهذه المنزلة الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ..

(فالذين) مفعول به لفعل محذوف ، تقديره : يخص الذين ينفقون ،وهذا الحذف يدل على تعظيم المتقين ، إذ يؤدى إلى سرعة الإفصاح عن الصفات المذكورة ، وإجرائها عليهم ، دون أن يحول النطق بالمحذوف بين تلك الصفات وسرعة إجرائها على المتقين(١٣) .

كما حذف مفعول (ينفقون) ليتناول كل ما يصلح للإنفاق ويصح أن يكون المعنى على عدم إرادة المفعول ، إجراء للفعل المتعدى مجرى اللازم مبالغة فى الإنفاق والبذل ، كما فى قولهم : فلان يعطى

---

(١٣)لك أن تجعل (الذين ينفقون) فى محل جر نعتا للمتقين، أو بدلا منه ، أو عطف بيان ، وأن تجعله فى محل نصب على تقدير فعل محذوف كما بينا ، والمعنى : يخص الله بمغفرته وجنته الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين ..

ويمنع ، أى : يكون منه الإعطاء والمنع ، والمعنى على ذلك : الذين يكون منهم الإنفاق والبذل فى السراء والضراء ..

وقد عبر عن الإنفاق بالفعل المضارع ، فى قوله تعالى : (**الذين ينفقون فى السراء والضراء**) وعبر عن كظم الغيظ والعفو عن الناس بالاسم فى قوله عز وجل : (**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**) وذلك لأن الإنفاق أمر يتجدد ، فعبر عنه بما يفيد التجدد وهو الفعل المضارع ، وأما الكظم والعفو فقد عبر عنهما باسم الفاعل (الكاظمين والعافين) للدلالة على الثبوت والدوام والاستمرار ، فالكظم والعفو عادة ثابتة فيهم ،وهم دائمون عليها ومستمرون ، لا ينفكون عن الاتصاف بها ، وأما الإنفاق فيتجدد وقوعه منهم ، ولذا عبر عنه بالمضارع الذى يفيد التجدد والحدوث ..

وتقييد الإنفاق بكونه (فى السراء والضراء) يدل على أنهم ينفقون فى جميع الأحوال ، لأنها لا تخلو من حال مسرة وحال مضرة ، فحال السرور لا تمنعهم من المعروف ، وحال المحنة والابتلاء لا تحول بينهم وبين الإنفاق والعطاء ..

وقوله تعالى : (**والله يحب المحسنين**) تذييل مؤكد لمضمون ما قبله(١٤) و (أل) فى (المحسنين) إما للجنس ، فيتناول كل محسن ، ويدخل فيه أولئك المذكورون ، وإما للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء المذكورين وإطلاق (المحسنين) عليهم يؤذن بأن الصفات المذكورة من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق، وجعل (أل) للعهد أولى ، لأنه أدخل فى مدحهم ، والثناء عليهم ..

---

(١٤) التذييل هو تعقيب جملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة المبالغة ، كما فى قوله تعالى : (**ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور**) سبأ : ١٧ ، فقوله : (وهل نجازى إلا الكفور) تذييل مؤكد لما قبله ، وكذا قوله : (والله يحب المحسنين) تذييل مشتمل على معنى ما قبله مؤكد له .

وقد قدم المسند إليه (لفظ الجلالة) على خبره الفعلى فى : (والله يحب) لتوكيد محبة الله لهؤلاء المحسنين ، وهذا شأن ذلك التعبير ، فعندما يقدم المسند إليه على خبره الفعلى فى الإثبات نحو : محمد يقوم .. عبد الله نجح .. هو يقرى الضيف ، فإن ذلك التقديم يفيد التوكيد غالبا ، وقد يفيد القصر حسبما يقتضي السياق وقرائن الأحوال ..(١٥)

وترجع دلالة هذا التعبير على التوكيد إلى أن تقديم المسند إليه ينبه المخاطب ويجعله متطلعا ومترقبا للخبر الذى سيخبر به ، فعندما يأتى الخبر يقر فى الذهن ويكون له أثر حسن ووقع طيب ، كما أن تقديم المسند إليه قد أدى إلى إسناد الفعل إلى فاعله مرتين ، مرة باعتباره فاعلا وأخرى باعتباره مبتدأ ، وتكرار الإسناد توكيد ..(١٦) .

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) .

عطفت هذه الآية على الآية قبلها ، ووقعتا معا بيانا للمتقين الذين أعدت لهم الجنة ووعدهم الله مغفرة منه وفضلا ، فقد بينت الآيتان أن هؤلاء المتقين قسمان ، قسم أقبل على الطاعات ، فأنفق فى السراء والضراء وكظم الغيظ وعفا عن الناس ، وقسم أذنب فتاب فغفر الله ذنوبهم ، وصار حالهم كحال من لم يذنب ، فاستحقوا الكرامة والاتصاف بالتقوى .

وكلا القسمين محسن ، أما الأول فقد أحسن إلى الغير والله يحب

---

(١٥) أنظر الحديث عن قوله تعالى : (**الله يستهزىء بهم**) فى ص٤٣

(١٦) الأول تعليل عبد القاهر والثانى تعليل السكاكي : إنظر دلائل الإعجاز ص ١٥٩ ومفتاح العلوم ص ٩٣ :

المحسنين ، وأما الثانى فقد أحسن إلى النفس بالتوبة من الذنوب ، والمؤمن العاصى إذا تاب كانت توبته إحسانا منه إلى نفسه ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ..

والتعبير (بإذا) دون (إن) يدل على أن خطأ المؤمن واقع لا محالة ،ولكنه يبادر بالتوبة والاستغفار ، ولا يصر على المعصية « **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** »(١٧) وسوسة الشيطان واقعة لا محالة ، وخطأ المؤمن التقى واقع أيضا لا محالة ، ولذا عبر بإذا فى الموضعين ، وإذا كان خطأ المؤمن واقعا ومحققا ، فإنه يبادر بالتوبة إلى ربه ، ويتذكر عقابه ووعيده ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) .

وقوله تعالى : (**فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم**) قالوا : الفاحشة هى الكبيرة كالزنا ، وظلم النفس : الصغائر كالقبلة واللمسة ونحوهما ، وقالوا الفاحشة : البالغة فى القبح ، والظلم : الذنب مطلقا، صغيرا أو كبيرا ، وعلى هذا القول فذكر ظلم النفس بعد ذكر الفاحشة من باب ذكر العام بعد الخاص تنويها بشأن الخاص لذكره مرتين ، مرة مستقلا ، وأخرى مندرجا تحت العام ..

وفى قوله تعالى : (**ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم**) حذف المضاف وتقديره : ذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه أو حقه العظيم وجلاله وجماله الموجب للاستحياء منه والخشية له ، فالحذف - كما نرى - يفيد الدلالة على العموم والشمول ، واتساع المعنى لكل ما يتذكره العاصى التائب إلى ربه ..

---

(١٧) الأعراف : ٢٠١ .

كما حذف مفعول (فاستغفروا) لوضوحه وشهرته وذيوعه ، إذ لا يخفى على ذى عقل أن الاستغفار واقع على الله تعالى ، ويصح أن يكون الفعل المتعدى (استغفروا) قد أجرى مجرى اللازم فلا ينوى له مفعول ، والمعنى : ذكروا الله تعالى فكان الاستغفار ..

والعطف بالفاء (فاستغفروا) ينبىء بسرعة الاستغفار ، والمبادرة به عقب التذكر بلا إمهال أو توان ، وهو يدل - كما قلنا - على أن هؤلاء محسنون لأنفسهم ، إذ لا يتمادون فى الخطأ ، بل يبادرون بالإقلاع عنه ، وطلب المغفرة ..

وقوله تعالى : **(ومن يغفر الذنوب إلا الله)** أسلوب استفهام أريد به النفى ، والمعنى : ولا يغفر الذنوب إلا الله ، وفرق بين الدلالة على النفى بأدواته الموضوعة له ، مثل : لا وما ولم ولن وليس ، وبين الدلالة عليه بالاستفهام ، لأن فى الاستفهام تحريكا للفكر ، وتنبيها للعقل ، وحثا على النظر والتأمل ، وتقريرا للمعنى وتأكيدا له ، وكأنه قيل : هل تعرفون أحدا يقدر على غفران الذنوب صغيرها وكبيرها حقيرها وعظيمها غير من وسعت رحمته كل شىء ؟ وعندما يتأمل المخاطب ، ولا يجد من يغفر إلا الله ، يتقرر ذلك المعنى ويتأكد ..

ولا يخفى علينا أن غفران الذنوب قد قصر على (الله) تعالى ، قصرا حقيقيا تحقيقيا ، فهو قصر صفة على موصوف ، وطريقه (النفى والاستثناء) وقد عبر بهذا الطريق (النفى والاستثناء) ليرتدع المنكرون وينزجر الجاهلون الذين يدفعون هذه الحقيقة ، وينكرونها ، وهذا القصر يوحى بأنه لا مفزع للمذنبين إلا كرم الله وفضله ورحمته التى وسعت كل شىء ..

وجملة القصر هذه (ومن يغفر الذنوب إلا الله) جملة اعتراضية اعترضت بين المعطوف عليه (فاستغفروا لذنوبهم) والمعطوف (ولم

يصروا على مـا فعلوا) أو بين الحال وصاحبها إذا اعتبر (ولم يصروا) حالا ، وهـذا الاعتراض يدل المبادرة بالمغفرة والاهتمام بشأن الغفران والتنبيه على تحقيقه بفضـل الله وكرمه إذا تاب العبد وأناب ..

وقد وضـع الاسـم الظاهر (الذنوب) وكذلك لفظ الجلالة موضع الضمير ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفرها إلا هو ، وهـذا العدول عن مقتضى الظـاهر يدل على أن الذنوب مهما عظمت يغفرها الله بتوبة العبـــد ، فعفـوه تعـالى أكبر وأعظم ، ولذا كان العـدول عن الضمير إلى الاسـم الظاهر (الذنوب) المقرون بلام الاستغراق دالا على أن الله يغفر الذنوب جميعا ، فلا يأس ولا قنوط من رحمـة الله « **قـل يا عبـادى الذين أسرفوا على أنفسـهم لا تقنطوا من رحمـة الله إن الله يغفر الذنوب جميعـا** »(١٨) .

كما أن العـدول عن الضمير إلى لفـظ الجلالة يدل على عزة الله وحكمته ، فهو العـزيز الذى لا يرد عليـه أحـد حـكمه ، الحكيم الذى يغفر لمن تقتضى حكمته أن يغفر له ، وإسناد الغفران إلى ذاته العليـة مع الحصر ، بعـد وجود الاستغفار ، يدل على تحقق الغفران ومحـو الذنوب بفضله تعـالى وكرمه ، وهـذه بشارة عظيمة ، تحرك النفوس نحو التوبة والإنابة إلى الله تعالى ..

وقوله تعـالى : (**ولم يصروا على ما فعـلوا وهم يعلمون**) عطف على قوله عز وجل (**فاستغفروا لذنوبهم**) أو حال منـه ـ كما ذكرنا ـ والتعبـير بما فى قوله (على ما فعـلوا) يدل على التهويل من شـأن المعصية والفواحش ، وينبـه ويحث على اجتنابها والابتعاد عنها(١٩).

---

(١٨) الزمـر : ٥٣ .

(١٩) « ما » إما اسم موصول عائده محذوف ، وإما مصدرية ، والمعنى : ولم يصروا على الذي فعلوه ، أو على فعلهم .

وجملة (وهم يعلمون) جملة حالية من فاعل (يصروا) ، وقد حذف مفعول (يعلمون) وتقديره : وهم يعلمون قبح فعلهم ، وكان في حذفه تكريما لهؤلاء التائبين بعدم ذكر القبح ونسبته إليهم ..

وتعد الجملة الحالية (وهم يعلمون) قيدا ، وعندما يذكر القيد بعد الفعل المنفى ، يكون النفى مسلطا إما على القيد فقط أو عليهما معا ، كقولك : ما جئتك راكبا ، فيصح أن يكون المعنى : جئتك غير راكب ، وأن يكون : لا مجىء ولا ركوب ، وقد يكون النفى متوجها إلى الفعل فقط من غير اعتبار لنفى القيد أو إثباته ..

والمراد فى الآية الكريمة انصباب النفى على الفعل والقيد معا ، والمعنى وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهى عنها وبالوعيد عليها ، لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح .

(أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) .

عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) للإشعار ببعد منزلتهم وسمو مكانتهم ، وهو مشار به إلى المتقين الذين وصفوا بما ذكر من أوصاف ، فدل على أن ما يرد بعده من جزاء فالمشار إليه جدير به ، وهذا من ألطف مواقع اسم الإشارة ، حيث يذكر مشارا به إلى شىء قد وصف بأوصاف عديدة ، ثم يجعل ما يترتب على تلك الأوصاف مسندا إلى اسم الإشارة ، فيدل اسم الإشارة عندئذ على أن المشار إليه قد استحق الجزاء المذكور ، وصار جديرا به من أجل الصفات المتقدمة التى اتصف بها ..

فقد وصف المتقون بأنهم ينفقون فى السراء والضراء ويكظمون الغيظ ويعفون عن الناس ، وإذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا

الله فاستغفروا ، ثم جاء اسم الإشارة فدل على أنهم جديرون بالجزاء المذكور ، وهو مغفرة ربهم وجنته من أجل صفاتهم المتقدمة ..

وهذا كثير فى آيات الذكر الحكيم ، كما فى قوله تعالى (**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**) (٢٠) .

وقوله تعالى : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** »(٢١) .

وقوله عز وجل : (**أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**) (٢٢) .

وقوله جل وعلا : (**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون**) (٢٣) .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، وعليك أن ترجع إلى الآيات المذكورة فى موطنها من سورها ، وتقف على المشار إليه ، وصفاته المتقدمة ، التى اتصف بها واستحق من أجلها الجزاء المذكورالذى أسند إلى اسم الإشارة وجاء عقبه ..

والتنكير فى (مغفرة) وفى (جنات) يدل على التعظيم والتفخيم ، وقد أكد هذا المعنى - معنى التعظيم والتفخيم - بالوصف الواقع بعد كل من اللفظين ، حيث وصفت المغفرة بكونها (من ربهم) ووصفت الجنات بجملة (تجرى من تحتها الأنهار) .

وجمع الجنات هنا يدل على أنها جنات فى ضمن تلك الجنة

---

(٢٠) البقرة : ٥ .
(٢١) البقرة : ١٦ .
(٢٢) المؤمنون : ١٠ ، ١١ .
(٢٣) البقرة : ٢٧ .

التى أخبر سبحانه وتعالى عنها ووصفها بقوله : (**عرضها السموات والأرض**) وذلك الوصف للسعة والبسطة ، أما الوصف هنا فلاشتمالها على ما يزيدها بهجة من الأنهار الجارية ..

وقدمت المغفرة على الجنات ، لأن دفع المضار أولى ومقدم على جلب المنافع ، والتخلية مقدمة على التحلية ، وقد أوضحنا ذلك فى قوله تعالى : (**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ...**) .

وفى قوله تعالى : (**تجرى من تحتها الأنهار**) مجاز عقلى حيث أسند الفعل إلى مكانه ، والذى يجرى إنما هو الماء ، كما يقال : سار الطريق ، وسال الوادى ، وهذا المجاز يفيد المبالغة فى جريان المياه ، ويصور كثرتها ، وامتلاء الأنهار بها ، وقد قيد الجريان بقوله (من تحتها) ليدل على جمالها وحسن منظرها ، فإن أكرم الجنات منظرا ما كانت أشجارها مظللة ، والأنهار تحت أشجارها مطردة ، واللام فى (الأنهار) إما للجنس ، وقد قصد به الإشارة إلى جنس الأنهار جمع النهر ، بلا قصد إلى العموم والاستغراق ، وإما للعهد الخارجى التحقيقى إشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى : « **مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى** »(٢٤) .

وإيثار التعبير بالاسم فى قوله تعالى (خالدين فيها) للدلالة على دوام الخلود واستمراره ، وفيه تكريم لهم ، كما أن هذا التعبير فى جانب الكفار يدل على دوام خلودهم فى النار ، إهانة لهم وإذلالا

---

(٢٤) محمد : ١٥ .

وقد صرح بالدوام والاستمرار فى قوله تعالى (**خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك**) (٢٥) ٠

وقوله تعالى : (**ونعم أجر العاملين**) أسلوب مدح ، والمخصوص بالمدح محذوف ، والتقدير : ونعم أجر العاملين المغفرة والجنات ، وهذا المخصوص في إعرابه ثلاثة أوجه ، يعرب مبتدأ مؤخرا والجملة قبله خبر ، أو يعرب خبرا لمبتدأ محذوف ، والمعنى : ونعم أجر العاملين هو المغفرة والجنة ، أو يعرب مبتدأ محذوف الخبر ، وعلى الوجهين الأخيرين ، يكون التعبير من قبيل الإيضاح بعدم الإبهام ، وللإيضاح بعد الإبهام أثره فى تقرير المعنى وتأكيده ٠٠

وفي التعبير خروج على خلاف مقتضى الظاهر ، لأن المراد بالأجر الجزاء المذكور في قوله تعالى : (**أولئك جزاؤهم ٠٠**) فالأصل : ونعم هو أي : جزاؤهم فوضع الاسم الظاهر (أجر العاملين) موضع الضمير ، وذلك للنص على العمل والتصريح به ، وإبراز أن ما نالوه وفازوا به ، إنما هو بعملهم واستجابتهم ، فوضع الظاهر موضع الضمير قد صور الجزاء أجرا لعامل ، وفى ذلك إنجاز وتحقيق لوعد الله الذى وعد به من المغفرة والجنة ، لأن العامل يدفع له أجره ويوفى إياه ٠٠٠

(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ٠ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)٠

تنكير (سنن) يدل على التعظيم والتفخيم ، والمراد بالسنن : ما سنه الله في الأمم المكذبة من وقائعه ، وهي وقائع عظيمة ، قال تعالى : « **ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ٠ سنة الله**

---

(٢٥) هود : ١٠٨ ٠

فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »(٢٦) فقد جرت سنة الله أن يمهل المكذبين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) (٢٧) ٠

والتعبير بالماضى (خلت) ودخول (قد) عليه يدل على تحقق سنن الله ونفاذها ومضيها فى المكذبين ، فهى سنن قد خلت من قبل ، أى : تحقق وقوعها ومضيها فيمن أعرضوا عن رسل الله وكذبوا ٠٠

والأمر فى قوله تعالى (سيروا فى الأرض فانظروا) للحث على التأمل والتدبر ، وأخذ العظة والعبرة من أحوال الأمم السابقة، وقد عبر بالحرف (فى) فقال (فى الأرض) والسير إنما يكون عليها لا فيها للدلالة على أن السير ينبغى أن يكون سيرا للنظر والبحث والتنقيب عن أخبار السابقين للاعتبار بها ٠٠

والتعبير بالفاء (فسيروا فى الأرض فانظروا) يدل على وجوب المبادرة بالتأمل ، والإسراع بالنظر والتدبر ، وفى هذه الفاء إيذان بسببية الخلو (قد خلت من قبلكم سنن) للسير والنظر أو للأمر بهما ٠

واسم الإشارة فى قوله تعالى : (هذا بيان للناس) مشار به إلى الآية السابقة (قد خلت من قبلكم سنن) والمعنى : هذا الذى ذكر إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب ، وفيه حث لهم على النظر فى سوء عواقب المكذبين قبلهم ، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم ٠

ويصح أن تكون الإشارة إلى ما لخص وبين من أمر الكفار والمتقين والتائبين ويكون قوله تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا) جملة

---

(٢٦) الأحزاب : ٦١ ، ٦٢ ٠
(٢٧) هود : ١٠٢ ٠

معترضـة للحث على الإيمان والتقوى والتـوبة ، وهو ما يستحق به الذى ذكـر من الأجر والجزاء ...

وسـواء جعلت الإشـارة إلى الآية السابقة (قد خلت) أو إلى ما لخص وبين من أمـر الكفـار والمتقين والتائبين ، فإن اسم الإشـارة (هـذا) قد جسد هـذه المعانى المشار إليها وأبرزها واضحة شاخصة ، وإيثـار التعبير بالاسم الموضـوع للقريب (هذا) دون البعيد (ذلك) للإيذان بقـرب الموعظة ووضوحها لمن أراد أن يتعظ ويتدبر ، وكان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شـهيد ..

والتنكير فى قوله تعـالى : « **بيـان للنـاس وهـدى وموعظـة للمتقـين** » للدلالة على التعظيم ، وأل فى (النـاس) إمـا للعهـد والمراد بهم : المكذبون وإمـا للجنس ، والمعنى : هذا بيان لجميع الناس لكن المنتفع به المتقـون ، لأنهم يهتدون به وينتجعون بوعظه ..

والمراد بالبيـان الدلالة التى تفيـد إزالة الشبهة ، فالبيـان عـام فى أى معنى كان ، والهـدى بيـان لطريق الرشـد ليسلك دون طـريق الغى ، والموعظة الكلام الذى يفيـد الزجـر عما لا ينبـغى فى طـريق الدين (٢٨) .

وعلى هـذا فذكر الهـدى والموعظة بعـد ذكر البيان ، من قبيـل ذكر الخاص بعـد العام ، تنويها بشأن الخـاص لذكـره مرتين ، مرة مندرجا فى العـام ، ومرة مستقلا بذاته ..

وعلى اعتبـار أن الأمر فى قوله تعـالى : « **فسـيروا فى الأرض فانظـروا** » للمؤمنين خاصة ، يكون ذكر المتقين من وضع الظاهر موضع الضمير ، إذ الأصـل : وهـدى وموعظة لكم ، فعدل عن هذا الأصـل

---

(٢٨) انظر التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٩ ص ١٣ .

إلى ما عليه النظم الكريم « وهدى وموعظة للمتقين » وسبب هذا العدول الإيذان بعلة الحكم ، فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم وعدم تكذيبهم (٢٩) .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

المراد بالنهى فى قوله تعالى : « **ولا تهنوا ولا تحزنوا** » تسلية رسول الله - ﷺ - والمؤمنين عما أصابهم يوم أحد ، وتقوية قلوبهم، وحثهم على القتال والجهاد ، والمعنى : لا تضعفوا عن قتال الأعداء والجهاد فى سبيل الله بسبب ما نالكم من الجراح يوم أحد ، ولا تأسوا على ما أصبتم به من قتل الأعزة ، لأنكم أنتم الأعلون ..

وهو معطوف على الأمر فى قوله تعالى : (**فسيروا فى الأرض**) والمعنى : سيروا فى الأرض فانظروا وتأملوا واعتبروا ، ولا تهنوا ولا تحزنوا ، فالنهى معطوف على الأمر بالسير فى الأرض ، ومرتبط به معنى ، والوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ووجود المناسبة ، حيث اتفقتا فى الإنشائية لفظا ومعنى ..

وقوله تعالى : « **وأنتم الأعلون** » بشارة للمؤمنينبالعلو والغلبة فهم الأعلى شأنا ، وهم الأغلب ، أصابوا من الكفار يوم بدر أكثر مما أصاب الكفار منهم يوم أحد ، ونالوا منهم أيضا يوم أحد ، وشهداء المؤمنين فى الجنة ، وقتلى الكفار فى النار ، والمؤمنون يقاتلون لإعلاء كلمة الله ، والكفرة يقاتلون للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر ، ولذا

---

(٢٩) قيل الأمر فى قوله (فسيروا) للمؤمنين ، وقيل للكفار ، ويصح أن يكون الأمر للجميع .

فإن المؤمنين هم الأعلى شأنا ، وهم الغالبون ، قال تعالى : **« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين • إنهم لهم المنصورون • وإن جندنا لهم الغالبون »**(٣٠) •

وتعرب جملة : (وأنتم الأعلون) حالا من الفاعل فى قوله تعالى: **(ولا تهنوا ولا تحزنوا)** وجوز بعضهم جعلها جملة معترضة بين النهى والشرط (إن كنتم مؤمنين) لأن الشرط متعلق به ، والمعنى : إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ، وعلى جعلها حالية يكون الشرط متعلقا بها ، والمعنى : إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون ••

وقد أوثر التعبير بإن فى قوله تعالى : **« إن كنتم مؤمنين »** إلهابا لهم ، وحثا على تحقيق المعلق بالشرط ، فإن ذلك هو المقصود من الجملة الشرطية هنا ، كما يقال : إن كنت عملت لك فاعطنى أجرى ، وإن كنت صادقا فامتثل أمر ربك ، فالمقصود بالشرط تحقيق جوابه ، وهو إعطاء الأجر والامتثال •

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله ، والتقدير : إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ، أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون شأنا وأنتم الغالبون ، والسر البلاغى وراء حذفه ، أن تذهب النفس كل مذهب فى تقدير الجواب والوقوف على المعنى ••

وفى قوله تعالى : **« إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله »** عبر بالفعل المضارع (يمسسكم) والمس قد وقع ، لحكاية الحال الماضية ، والتعبير بإن يدل على أن ذلك لا يمس المؤمنين إلا نادرا ، عندما يخالفون أمر الله ورسوله ، كما حدث من الرماة يوم أحد ، أو عندما يغترون بكثرتهم ، كما وقع منهم يوم حنين ، فقد قالوا : لن نهزم اليوم عن قلة ، فهزموا لإعجابهم

---

(٣٠) الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣ •

بكثرتهم ، قال تعالى : « **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** .. »(٣١) ولكن عندما يركنون إلى الله ، ويعتمدون عليه ، ويستمدون منه العون ، يكون النصر حليفهم ، قال تعالى : « **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** »(٣٢) .

وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله تعالى : « فقد مس القوم قرح مثله » والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فلا تضعفوا ، فقد نلتم منهم يوم بدر ، ولم يضعفهم ذلك ، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى بذلك منهم ، أو المعنى : إن نالوا منكم فى هذا اليوم فلا تحزنوا ولا تهنوا ، فقد نلتم منهم قبل أن تخالفوا أمر رسول الله - ﷺ - ، وقتلتم منهم نيفا وعشرين ، فهم يألمون كما تألمون .

والمماثلة المذكورة للقرحين فى قوله تعالى : « فقد مس القوم قرح مثله » قالوا : هى كثرة القتلى فى الجملة ، فقد قتل من المشركين يوم بدر سبعون وأسر سبعون ، واستشهد من المسلمين فى أحد خمسة وسبعون وجرح سبعون ، وقيل المراد بها مجرد الانهزام لا كثرة القتلى(٣٣) ..

وعلى جعل المسين فى أحد ، فإن قرح المشركين كان مماثلا لقرح المسلمين أيضا ، فقد قتل منهم نيف وعشرون - كما ذكرنا - ورجعوا خائبين مع كثرتهم وغلبتهم ، حيث حفظ الله رسوله والمؤمنين .

وفى قوله تعالى : « **وتلك الايام نداولها بين الناس** » جاء

---

(٣١) التوبة : ٢٥ .
(٣٢) الحج : ٤٠ .
(٣٣) انظر روح المعاني ٤/٦٨ .

اسم الإشارة مشارا به إلى ما بعده « الأيام » كما فى الضمائر المبهمة نحو قوله تعالى : « **إنه لا يفلح الكافرون** »(٣٤) ، وقوله عز وجل : « **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** »(٣٥) وهذا يدل على التفخيم والتعظيم ، لأن الشىء إذا أبهم ثم وضح وفسر بدا عظيما جليا مؤكدا ، وثبت عندئذ فى النفس وقر ، وكان له أثره ووقعه ..

والمراد بالأيام : أوقات الظفر والغلبة الجارية بين الأمم الماضية والآتية ، ومنها يوما بدر وأحد ، فأل فى (الأيام) للعهد ، وليس المراد بالأيام : الأيام العرفية(٣٦) .

وعبر بالفعل المضارع فى قوله تعالى : « نداولها بين الناس » للدلالة على التجدد والاستمرار ، وهذا يشعر بأن تلك المداولة سنة متبعة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة إلى أن يأتى أمر الله تعالى ، ومن أقوالهم : الأيام دول ، والحرب سجال ، وفيه تسلية للمؤمنين عما أصابهم يوم أحد ..

وفى قوله تعالى : « **وليعلم الله الذين آمنوا** » حذف إما للمعلل وإما للعلة ، فالمعنى على الأول : وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك ، فحذف الفعل المعلل ، واكتفى بذكر العلة « ليعلم الله الذين آمنوا » وهو من باب التمثيل بمعنى : فعل الله ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت ،

---

(٣٤) المؤمنون : ١١٧ .
(٣٥) الحج : ٤٦ .
(٣٦) وتعرب الأيام إما خبرا لاسم الإشارة ، والجملة بعدها خبرا ثانيا أو حالا العامل فيها معنى الإشارة ، وإما صفة أو بدلا أو عطف بيان والجملة بعدها هي الخبر ..

فالله عـز وجـل لم يـزل عالمـا بالأشياء قبـل كونهـا ، وجعل علمـه تعـالى الذين آمنوا عـلة للمداولة يستقيم عـلى التمثيـل المذكـور ..

وقيـل : إن معنـاه ليعلمهم علمـا يتعلق بـه الجـزاء ، فيحمـل العـلم على التعـلق التنجيزى المترتب عليـه الجـزاء ، أى : ليعلمهم موجـودا منهـم الثبـات على الإيمـان ..

ويصـح أن يكـون العـلم من قبيـل المجـاز المرسل حيث أطـلق السـبب على المسبب ، أى : أطـلق العـلم وأريـد التمييـز ، والمعنى : وليتميـز الثابتون على الإيمـان من الذين يعبدون الله على حـرف فعل - عـز وجـل - ذلك ..

وعلى الثـانى ، وهـو كـون المحذوف العـلة ، والمذكور معطوفا عليهـا يكـون المعنى : وتلك الأيـام نداولها بين النـاس لتكون حكمـا وفـوائد جمـة ، وليعـلم الله الذين آمنـوا ويتخـذ منـكم شـهداء ، والسـر البلاغى لهـذا الحـذف الدلالـة على أن العـلل غيـر منحصرة فيمـا عـدد من الأمـور ، فعـلى العبـد أن يصـبر ، وألا يسـوءه ما يجـرى عليـه من المصـائب ، لأنه لا يشعر بمـا لله فى طيـه من الألطـاف ، ولا يدرى العبـد أين يكـون الخيـر ، أفيمـا طـواه الله عنـه وحجبـه أم فيمـا أبـرزه وأجـراه عليـه ، وصـدق الله تعـالى إذ يقـول : « **وعسى أن تكرهوا شيئا وهـو خيـر لـكم وعسى أن تحبوا شـيئا وهـو شـر لـكم والله يعـلم وأنتـم لا تعلمون** »(٣٧) .

وقـد التفت من التكلم فى قـوله تعـالى : (نداولهـا) إلى الغيبة فى قـوله عـز وجـل : (وليعـلم الله) والالتفات من صـور خـروج الكـلام على خـلاف مقتضى الظـاهر ، حيث ينتقـل من إحدى طـرق الكـلام إلى الآخـرى ، فـلا يمضى الكـلام على وتيـرة واحـدة ، بـل

---

(٣٧) البقرة : ٢١٦ .

يتنوع ، ومن شأن هذا التنوع أن يحرك الذهن ، وينبه العقل ، ويوقظ الحس والفكر ، فيدرك مرمى الكلام ، وتقر فى الأذهان مقاصده ...

وفضلا عن ذلك فإن الالتفات فى الآية الكريمة أدى إلى التصريح بالاسم الجليل (الله) تربية للمهابة فى النفوس ، وإشعارا بكمال صفاته تعالى وكمال أفعاله ، وطمأنة للمؤمن الذى يركن إلى الله فيذهب همه ، ويثبت فؤاده ، وتستريح نفسه ، ويجد فى ذلك تسلية له عما أصابه ..

وقوله تعالى : « **ويتخذ منكم شهداء** » كناية عن التكريم والتعظيم ، لأن من اتخذ شيئا لنفسه ، فهو يحبه ويعتز به ، ومن اتخذه الله شهيدا ، فقد اختاره وارتضاه ، والمعنى : وليكرم أناسا منكم بالشهادة .

والشهداء إما جمع شهيد ، والمراد بهم شهداء الحرب الذين قتلوا فى سبيل الله ، وأراد بهم : شهداء أحد ، وإما جمع شاهد ، والمعنى : ويتخذ منكم شهودا بما ظهر من ثباتهم على الحق ، وصبرهم على الشدائد ، وغير ذلك من شواهد الصدق ، ليشهدوا على الأمم يوم القيامة ، قال تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا .** »(٣٨) .

وقوله تعالى : « **والله لا يحب الظالمين** » جملة اعتراضية ، اعترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهى مقررة لمضمون ما قبلها ، وفيها تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافر على الحقيقة ، لأنه تعالى لا ينصر إلا أولياءه الذين نصروه ، وما يكون من غلبة

---

(٣٨) البقرة : ١٤٣ .

للكافر أحياناً ، فإنما ذلك استدراج له وإملاء ، وابتلاء للمؤمن وتمحيص ..

والمراد بالظالمين : الكفار أو المنافقون ، ووصفهم بالظلم ليدل على تجاوزهم وتعديهم على الحق ، وليشعر بأن هذا هو السبب الذى أوجب عليهم بغض الله تعالى ، ومن أبغضهم الله أبغضه أهل السماء ، ووضعت له البغضاء فى الأرض ..

وقد عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر وهو لفظ الجلال ، إذ الأصل : وهو لا يحب الظالمين ، لتقدم ذكره تعالى ، وفى هذا العدول تربية للمهابة ـ كما ذكرنا ـ وتأكيد لبغضه الظالمين ، كما يدل على ذلك أيضا تقديم المسند إليه « لفظ الجلالة » على خبره المنفى ، فإن هذا التقديم يدل على تأكيد نفى الفعل .

وفى قوله تعالى : « **وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** » عطف التمحيص وهو التطهير من الذنوب والتخليص من العيوب ، على الاتخاذ ، فهو العلة الثالثة من العلل المذكورة للمداولة ، وقد ذكرت اللام فى هذه العلة ، وكان يمكن الاستغناء عنها كما استغنى عنها فى العلة الثانية (ويتخذ) لدلالة اللام فى العلة الأولى (وليعلم) على كل منهما ، ولكنها ذكرت هنا على الرغم من الدلالة عليها للاعتناء بشأن هذه العلة ، ولذا أيضا أظهر لفظ الجلالة فى موضع الإضمار ، ولعل الفصل بالجملة الاعتراضية بين العلة الثانية والعلة الثالثة هذه ، مما دعا أيضا إلى هذه اللام ، واقتضى ذكرها ..

وتلك العلل الثلاث « ليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ... وليمحص الله الذين آمنوا » علل للمداولة باعتبار كونها على المؤمنين ، والعلة الرابعة (ويمحق الكافرين) خاصة بالكفار

كما هو واضح ، ولعل تأخير العلة الثالثة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين ، إذ التمحيص تطهير من الذنوب ، وتصفية من السيئات ..

وأيضا لكى تقترن هذه العلة الثالثة (وليمحص الله الذين آمنوا » بالعلة الرابعة الخاصة بالكفار (ويمحق الكافرين) لما بينهما من المناسبة ، ففى كل من التمحيص والمحق إزالة ، إلا أن التمحيص إزالة للذنوب والسيئات والعيوب ، يقال : محصت الذهب إذا أزلت خبثه ، وأما المحق فهو إزالة العين ، وإهلاك النفس ، وأصله التنقيص شيئا فشيئا ، ومنه المحاق ، والمعنى : ويهلك الكافرين فلا يبقى منهم أحدا ..*

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

استئناف لبيان الغاية القصوى من مداولة الأيام ، وهى فوز المجاهدين الصابرين فى الجهاد لإعلاء كلمة الله بدخول الجنة ، فأم منقطعة بمعنى بل والهمزة ، أفادت الإضراب عن التسلية ببيان العلل فيما أصابهم ولاقوه من شدة ، إلى تحقيق الغاية منها ، وهى الفوز بالمطلب الأسنى والمقام الأعلى .

والاستفهام بأم استفهام إنكارى ، إذ المقصود إنكار أن يقع منهم ذلك الحسبان ، والمعنى : بل لا ينبغى منكم أن تظنوا أنكم تدخلون الجنة ، وتفوزون بما أعد الله فيها من نعيم ، دون أن

---

* المحاق بفتح الميم وكسرها وضمها : استتار القمر آخر الشهر ، لأنه يطلع قبل طلوع الشمس فلا يرى .

يقـع ابتلاء منـا لـكم وتمحيص ، لنعلم المؤمنين المجاهدين ، الصابرين على الجهـاد لإعـلاء كلمـة الحـق ...

ونفى العـلم فى قـوله تعـالى : (ولمـا يعـلم الله) إما باعتبار تعلقـه التنجيزى كمـا مـر فى قـوله عـز وجـل (وليعـلم الله الذين آمنـوا) والمعنى : لمـا يعلمهم علمـا يتعلق بـه الجـزاء ، فيترتب عليه جزاؤهـم ..

وإمـا على سـبيل الكنـاية حيث أطلق عـلم الله وأريـد به المعلوم وهـو الجهـاد ، والمعنى : ولمـا تجاهدوا ، لأن عـلم الله تعـالى متعلق بالمعـلوم ، فنـزل نفى العـلم منزلة نفى متعلقه ، لأنـه منتف بانتفائه ، والتعبير عن نفى المعـلوم بنفى العـلم خـاص بعـلم الله تعـالى ، لأنه يلـزم من عـدم تعـلق علمـه تعـالى بوجود شىء ما عـدم ذلك الشىء ، ضرورة أنـه لا يعـزب عن علمـه شىء لعمـوم تعلقـه ، يقـال ما علم الله فى فـلان خيـرا ، والمـراد : ليس فيـه خيـر حتى يعلمه الله تبارك وتعـالى ..

وإيثـار الكنـاية على التصريح للمبالغة فى تحقيق المعنى المراد ، وهـو عـدم تحقق الجهـاد ، الذى هـو سبب الفـوز بالجنة ، والنعيم العظيم الذى أعـد بهـا للمجاهدين الصـابرين ، لأن الكنـاية بمثـابة دعـوى الشىء ببينـة ، وهـذا يشـعر بضرورة الإخـلاص فى العمـل ، والتخلى عن الريـاء ، لأن المقصود أن يعلم الله تعالى ، لا علم الناس ..

وفى توجيـه النفى إلى الموصوفين فى قـوله تعـالى : (ولمـا يعـلم الله الذين جاهـدوا منـكم) دون أن يقـال : ولمـا يعـلم الجهاد واقعـا منـكم ، إذ المقصـود نفى الوصف وهـو الجهـاد ، لأن فى ذلك مزيـدا من المبالغة فى انتفـاء الوصف ، وعـدم تحققه أصـلا ، إذ نفى الموصوف يستلزم انتفـاء صفته ..

وعبر بلما دون لم التى بمعناها ، لأن فى (لما) ضربا من توقع الفعل المنفى بها ، وهذا يدل على نفى الجهاد فى الماضى ، وعلى توقعه فى المستقبل ، تقول : وعدنى فلان ولما يف ، تريد أن الوفاء لم يقع فى الماضى ، ويتوقع وقوعه فى المستقبل ..

والواو فى قوله تعالى : (ويعلم الصابرين) واو المعية والمضارع منصوب بعدها بأن مضمرة ، وفى هذه الواو معنى الجمع ، كقولك : لا تاكل السمك وتشرب اللبن ، والمعنى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر ، أى : الجمع بينهما ، وقرىء برفع (يعلم) على أن الواو واو الحال ، والمعنى : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون ..

وأوثر التعبير بالصابرين فلم يقل : ويعلم الذين صبروا ، على غرار قوله تعالى : (ولما يعلم الله الذين جاهدوا) للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر والمداومة عليه والثبات ، وهذا لا يتأتى عند التعبير بالموصول وصلته ، إذ ليس فى الفعل معنى الثبات والاستمرار ، وأما الجهاد فليس ذلك معتبرا فيه ، لأنه يتجدد حينا بعد حين ، وتاتى الغزوة بعد الغزوة ، فناسب ذلك أن يعبر عنه بالموصول وصلته « الذين جاهدوا » .

وقوله تعالى : « **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم نتظرون** » عتاب للمنهزمين الذين كانوا يتمنون أن يحضروا مشهدا مع رسول الله - ﷺ - ليصيبوا من كرامة الشهادة مانال شهداء بدر ، عتاب لهم على تمنيهم الشهادة وهم لم يثبتوا حتى يستشهدوا ، أو على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم وليس العتاب على تمنى الشهادة فى حد ذاتها ، لأن ذلك مما لا يعاتب عليه كما لا يخفى ..

ومعنى تمنى الموت : تمنى الشهادة ونيل الكرامة ، ولا يقال : كيف تتمنى الشهادة وفى تمنيها غلبة الكافر المسلم ، لأن قصد المتمنى الوصول إلى نيل كرامة الشهداء فحسب ، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن ، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصرانى إنما يقصد الشفاء دون نفعه وترويج صناعته ، وقد وقع هذا التمنى من عبد الله بن رواحة ، وهو من كبار الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وذلك حيث يقول :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة
وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة
بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثى
أرشدك الله من غاز وقد رشدا(٣٩)

والفاء فى قوله تعالى : (فقد رأيتموه) فاء الفصيحة ، أفصحت عن الشرط المحذوف ، والتقدير : إن كنتم صادقين فى تمنيكم الشهادة والموت فى سبيل الله فقد رأيتم أسبابه ، وشاهدتموها ، وإيثار التعبير بالرؤية على الملاقاة ، فلم يقل : من قبل أن تلقوه فقد لقيتموه ، ثم تقييد الرؤية بالحال (وأنتم تنظرون) للمبالغة فى توكيد المشاهدة ، كما يقال : رأيته بعينى رأسى ، ورأيته وليس فى عينى علة ، والمراد : رأيته رؤية حقيقية ، لا خفاء فيها ولا شبهة ، وأيضا فإن فى التعبير بالرؤية دون الملاقاة ما يشعر

---

(٣٩) الزبد بفتح الباء والزاى المشددة المراد بها : الدماء أى : تقذف الدماء وتسيلها ، ويجوز أن يراد بالموت فى الآية : الحرب فإنها من أسبابه ، وذلك على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته المسببية ، وعندئذ فالمتمنى : الحرب لا الموت ..

بانهزامهم وتوليهم ، ولـو صبروا فى القتال وثبتـوا لقيـل : فقـد لقيتمـوه ..

« وما محمـد إلا رسـول قـد خلت من قبـله الرسـل أفـإن مـات أو قتـل انقلبتـم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيـه فـلن يضر الله شـيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

فى هـذه الآيـة الكريمة قصـر لرسول الله محمـد ـ ﷺ ـ على صـفة الرسـالة لا يتعداها إلى البعـد عن الهـلاك ، فهـو ـ ﷺ ـ رسـول يخـلو كمـا خلت الرسـل من قبـله ، وليس جامعـا بين صفتى الرسـالة والتبـرى من الهـلاك ، فالقصر قصر إفـراد ، لأن الصحابة ـ رضى الله عنهـم ـ لمـا استعظموا عـدم بقـائه ، نزلـوا منـزلة من يستبعد ذلك ، وينـكر خـلوه ـ ﷺ ـ حتى كأنهم قـد اعتقدوا فيـه وصفين : الرسـالة والبعـد عن الهـلاك ، فقصر ـ ﷺ ـ على الرسـالة لا يتجاوزها إلى البعـد عن الهـلاك ، وذاك قصر إفـراد .

وأمـا قـوله تعـالى فى شـان المسـيح عيسى بن مريـم : **« ما المسـيح ابن مريـم إلا رسـول قـد خـلت من قبـله الرسـل »**(٤٠) فـإنه قصر قـلب ، لأن النصـارى اعتقدوا أن الله ثالث ثلاثة ، اعتقدوا أن عيسى ـ عليـه السـلام ـ إلهـا ، فقلب ذلك الاعتقـاد ، وقصر على كـونه رسـولا يخـلو كمـا خلت الرسـل من قبـله ، لا يتجاوز ذلك إلى كـونه إلهـا ..

وقـد أوثـر طـريق النفى والاستثناء ، فى الدلالة على القصر ، دون (إنما) مع أن الصحابة لا ينكرون كونه ـ ﷺ ـ مقصورا على الرسالة لا يتعداها إلى البقـاء ، وذلك لأنهـم لمـا كانوا متعلقين بـه ـ ﷺ ـ ويستعظمون مـوته ، ويعـدونه أمـرا خطيـرا وحـدثا جليـلا ، نزلوا

---

(٤٠) المـائدة : ٧٥ .

لذلك منـزلة من ينكـر موته ، ويعتقـد أنـه يجمـع بين صفتى الرسالة والبقـاء ، والسـر البلاغى وراء هـذا العـدول هـو تصـوير حـال الصـحابة رضى الله عنهـم ، والإشـعار بعظـم ذلك الأمـر فى نفوسهم ، وشـدة حرصهم على بقـائه - ﷺ - كمـا لا يخـلو الأمـر من عتـاب عنيف لهـم ، لعـدم مضيهم على وفـق ما يعلمون ، وما هـو راسـخ فى نفوسـهم ..

والاستفهام فى قـوله تعـالى : « أفـإن مـات أو قتـل انقلبتم على أعقابكم » استفهام إنكـارى ، والفـاء عاطفـة للجمـلة الشرطية على الجمـلة قبلهـا ، على معنى التسبب ، ودخـول الهمـزة على الفـاء يـدل على إنكـار معنى حـرف العطف ، أى : إنكـار أن يجعلوا خـلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعـد خلوه - ﷺ بموت أو قتل ، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا بـه ، يجب أن يجعل سـببا للتمسك بالدين لا للانقلاب عنـه ..

ولـم يكن ثمـة انقـلاب ولا ارتـداد حقيقية ، وإنمـا هـو تغليظ عليهـم لمـا كـان منهـم من الفـرار يـوم أحـد ، والانكشاف عن رسول الله - ﷺ - فالإنكـار فى الآيـة بمعنى أنـه لـم يكن ذلك ، ولا ينبغى أن يكـون ، وليس إنكـارا لانقـلاب أو ارتـداد وقـع منهـم ..

والتعبيـر بأداة الشـرط (إن) فى قـوله تعـالى : « أفـإن مـات .. » لتنزيل المخاطبين لشـدة تعلقهم بـه - ﷺ - منـزلة من يستبعد مـوته ، ويتـردد فى وقـوعه ، استعظاما لـه ..

وقـوله تعـالى : « انقلبتم على أعقابكم » الانقـلاب على الأعقاب فى الأصـل : الرجوع القهقرى ، فهـو استعارة تمثيلية للارتداد والرجوع إلى ما كـانوا عليـه قبـل الإسـلام ، والمعنى على الإنكـار - كمـا أوضحنا - لا عـلى أن هـذا قـد وقـع منهـم ..

وفى وضع الاسم الظاهر موضع الضمير فى قوله تعالى : « وسيجزى الله الشاكرين » إشعار بمزيد الاعتناء بشأن جزائهم ، حيث أسند إلى صريح لفظ الجلالة للدلالة على عظمه وفخامته ..

كما أطلق لفظ (الشاكرين) على الثابتين ، الذين لم يفروا ولم يتخلوا عن رسول الله - ﷺ - يوم أحد ، وسماهم عز وجل شاكرين ، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا ، وكان ثباتهم ناشئا عن يقين ، وإيمان راسخ ، وفيه إيماء إلى ضعف إيمان من فر وتولى عن رسول الله - ﷺ - حيث لم يشكر نعمة الإسلام فيما صنع من التولى والفرار ، فاتصال قوله تعالى : (وسيجزى الله الشاكرين) بقوله عز وجل قبله : (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) اتصال الوعد بالوعيد ..

ولا يخفى عليك أن تنكير (شيئا) للدلالة على التقليل والتحقير ، وأن توجه النفى إلى المفعول فى قوله تعالى : (فلن يضر الله) يفيد أنه يضر غير الله تعالى ، وليس هذا الغير إلا نفس المنقلب على عقبيه ، فهو إنما يضر نفسه بتعريضها لسخط الله وعذابه ، وحرمانها من الثواب والجزاء العظيم الذى أعده الله للشاكرين ..

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين .. » .

فى هذه الآية الكريمة قصر حصول الموت ووقوعه بالأنفس على كونه بإذن الله تعالى ومشيئته ، لا يتعدى هذه المشيئة ، والمعنى : ما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس مطلقا بسبب من الأسباب إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه ، ووراء دلالة القصر معنيان :

أحدهما : الحث على الجهاد لإعلاء كلمة الله ، والإشعار بأن الحذر لا ينفع ، وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ..

الثانى : حفظ الله تعالى نبيه - ﷺ - عند غلبة العدو فى يوم أحد ، والتفافهم عليه عندما تولى عنه من تولى من المسلمين ، وفى ذلك تسلية للمؤمنين ، لما أصابهم من الخوف على رسول الله - ﷺ - عندما التف عليه الأعداء ..

وقد أكد القصر بقوله تعالى : « كتابا مؤجلا » لأن (كتابا) مصدر مؤكد لعامله المستفاد من الجملة السابقة - جملة القصر - والمعنى : كتب ذلك الموت المأذون فيه كتابا مؤجلا ، أى : موقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر « **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** »(٤١) .

وقوله تعالى : « **ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها** » تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد عن رسول الله - ﷺ - فخالفوا أمره ، وتركوا مكانهم ، وانشغلوا بالغنائم ..

وقد التفت من الغيبة فى قوله تعالى : (إلا بإذن الله) إلى التكلم فى قوله عز وجل : (نؤته منها) وفى هذا الالتفات وعيد لمن يركنون إلى الدنيا ويغترون بزخرفها ومتاعها القليل ، فهو التفات الغاضب المتوعد ، قال تعالى : « **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا .** »(٤٢) .

وكما عرض بالذين شغلتهم الغنائم فنسوا أمر رسول الله

---

(٤١) الأعراف : ٣٤ .
(٤٢) الإسراء : ١٨ .

- ﷺ - امتدح الذين ثبتوا يومئذ يدافعون معه وعنه - ﷺ - فقال عز وجل : (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) وقد أبهم الثواب الذى أعده لأولئك المؤمنين تعظيما له ، فقال تبارك وتعالى : (وسنجزى الشاكرين) فهذه جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها ووعد بالمزيد عليه ، وفى تصديرها بالسين وإبهام الجزاء دلالة على فخامة شأن ذلك الجزاء ، المعد لهؤلاء الشاكرين ، وكونه بحيث لا يحيط به الوصف ، ويضيق عنه نطاق البيان ، قال عز وجل : « **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** »(٤٣) ومن شكر الله سعيه فقد أعد له جزاء عظيما ، لا يمكن إدراكه ، ولا يتاتى بيانه .

ولا يخفى عليك أن (الدنيا) و (الآخرة) صفتان قد حذف موصوفهما ، والتقدير : ومن يرد ثواب الحياة الدنيا .. ومن يرد ثواب الحياة الآخرة .. وقد كثر هذا الحذف ، حتى صارت الصفتان من الصفات الغالبة ..

كما لا يخفى عليك أيضا حذف المضاف فى قوله تعالى : (نؤته منها) فى الموضعين ، إذ المراد : نؤته شيئا من ثواب الدنيا إن شئنا ... ونؤته من ثواب الآخرة ما نشاء حسبما جرى به قلم الوعد الكريم ...

اللهم اجعلنا من الصابرين الشاكرين ، الذين يريدون ثواب الآخرة ، ويزهدون فى الدنيا ، فلا يركنون إليها ، ولا يغترون بمتاعها وزخرفها ، « **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** »(٤٤) .

---

(٤٣) الإسراء : ١٩ .
(٤٤) النساء : ٧٧ .

(٣)

قال تعالى : « **الم • تلك آيات الكتاب الحكيم • هدى ورحمة للمحسنين • الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون • أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون • ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين • وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كان فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم • إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم • خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم • خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم • هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** » لقمان ١ ـ ١١ •

عند تناولنا للآيات الكريمة من أول سورة البقرة تحدثنا عن فواتح السور ، فذكرنا عدد حروف الهجاء التى وردت فى هذه الفواتح ، فهى نصف حروف الهجاء ، وقد اشتملت على جميع أجناسها ، ففيها النصف من كل جنس ، والحروف التى وردت بالفواتح هى التى كثر استعمالها فى نظم القرآن الكريم ، عن استعمال غيرها التى لم ترد ..

كما أشرنا إلى طريقة النطق بهذه الفواتح ، وجلينا ما قاله العلماء فى تعليل افتتاح السور بها ، فقد قالوا : إنها للإيقاظ والتبكيت وإلزام الحجة ولفت الأنظار والتنبيه على الإعجاز ، ولم يقطعوا بقول فيها وإنما جعلوها سرامن اسرار القرآن ، حيث قالوا : لكل كتاب سر ، وسر القرآن فواتحه(١) .

فقوله تعالى : (الم) جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم

---

(١) انظر ص ٨ وما بعدها .

مستقلة بنفسها ، نبهت إلى أنه الكلام المتحدى به ، ثم جاء قوله عز وجل : (**تلك آيات الكتاب الحكيم**) مقررا لهذه الجملة ومبينا لجهة التحدى ، ففصل بينهما لكمال الاتصال .

واسم الإشارة (تلك) مشار به إلى آيات السورة الكريمة ، وقد عبر به وهو موضوع للبعيد للدلالة على تعظيم الآيات الكريمة وبعد مكانتها ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى .

واضافة الآيات الى الكتاب الحكيم فى قوله تعالى : (**آيات الكتاب الحكيم**) يدل على التعظيم والتفخيم ، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه ، يقال : عبد الله ، وخادم الأمير ، فتعظم هاتان الكلمتان : عبد وخادم ، بإضافة الأولى إلى لفظ الجلالة ، وإضافة الثانية إلى الأمير ، وكانتا قبل الإضافة تخلوان من هذا المعنى ، بل كان فيهما معنى الذل والهوان والتحقير ..

ونجد أن كلمة (عبد) قد سمت وعظمت فى آيات الذكر الحكيم بإضافتها إلى أسماء الله تبارك وتعالى ، ولنقرأ الآيات الكريمة : « **قال إنى عبد الله ... وانه لما قام عبد الله يدعوه ... وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ...** »(٢) .

ولله در القائل :

ومما زادنى شرفا وتيها وكدت بأخمصى أطا الثريا
دخولى تحت قولك : يا عباد وان جعلت احمد لى نبيا

وفى قوله تعالى : (**الكتاب الحكيم**) مجاز عقلى ، لأن الحكمة فى الحقيقة ليست وصفا للكتاب ، وإنما هى وصف لقائله عز وجل ، فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز ، كقولك : سار

---

(٢) الآيات بالترتيب : مريم : ٣٠ ، الجن : ١٩ ، الفرقان : ٦٣ .

الطريق ، وصام النهار ، فكذلك وصف الشيء بغير ما حقه أن يوصف به ، ونحو ذلك قولهم : الأسلوب الحكيم والضلال البعيد ، والرجل العدل ، فالحكمة في الحقيقة ليست وصفا للأسلوب ، وإنما هي وصف لصاحبه ، والبعد ليس وصفا للضلال بل هو وصف للضال ، والعدل ليس وصفا للرجل ، بل وصف لأقواله وأفعاله ، فالأصل أن يقال : رجل ذو عدل ، كما يقال : رجل ذو رأي ..

وتنكير (**هدى ورحمة**) للتعظيم ، والدلالة على كمال الهداية والرحمة ، أما كونه رحمة للمحسنين ، فهذا جلي لا يحتاج إلى بيان ، قال تعالى : « **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** »(٣) وأما كونه هدى لهم والمحسنون مهتدون ، فالمعنى : أن فيه زيادة هدى لهم ، واستدامة عليه ، كما يقال للغني : أغناك الله ، وللعزيز : أعزك الله، وللكريم : أكرمك الله ، والمعنى : زادك الله غنى وعزة وكرامة ، وأدام ذلك لك ، فالمراد طلب الزيادة والدوام لما هو ثابت في الغني والعزيز والكريم ..

وفصل قوله تعالى : « **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون** » عما قبله للاستئناف البياني ، حيث تضمنت الآيات السابقة سؤالا ، ووقعت هذه الآية جوابا له ، وكأن سائلا سأل : من هم هؤلاء الذين جعل القرآن لهم هدى ورحمة ؟ فجاء الجواب : هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ..

وقد حذف المسند إليه (هم) في صدر الاستئناف ، كما حذف في قوله تعالى : « **يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ...** »(٤) ، إذ التقدير : المسبح رجال ، أو يسبحه رجال ، فحذف المسند إليه أو المسند في صدر الاستئناف ،

---

(٣) الإسراء : ٨٢ .
(٤) النور : ٣٦، ٣٧ .

وهذا على قـراءة من قـرأ ببناء الفعـل (يسبح) للمفعول ، وأما على قراءة من قرأ ببنـائه للفاعل فإن (رجال) فاعل (يسبح) ولا حـذف عندئذ ، بل هى جملة واحدة مكونة من الفعل والفاعل : يسبح له رجال ، كما هو واضح ..

والسـر البلاغى وراء الحذف فى الآية الكريمة أن يتصـل الموصول وصلته (الذين يقيمـون) بالمحسـنين فى اللفظ ، ، فهـذا الاتصـال اللفظى يبرز المحسنين ويصـورهم ممتثلين قائمين بهذه الأعمـال التى استحقوا بها الفـلاح والفـوز(٥) ..

وفى مجىء صـلة الموصول أفعـالا مضـارعة (يقيمون .. يؤتون .. يوقنـون) دلالة على تجدد تلك الأعمـال والأفعـال من المحسنين ، واستمرارهم على تحقيقها ، وذلك لأن الفعـل المضـارع يدل على التجدد والاستمـرار ..

واقتصـر على ذكـر إقامة الصـلاة ، وإيتـاء الزكاة ، والإيقـان بالآخـرة لعظم هذه الأمـور ، وأهميتها ، وفضـل الاعتداد بها ، فجعلت لذلك بمنزلة الجميـع ، ومن أتى بها كان آتيـا بغيرها ، وكما قالوا : (كل الصيد فى جـوف الفـرا)*

وقد قدم المسند إليـه فى قوله تعالى : **(وهم بالآخرة هم يوقنون)** على خبره الفعـلى ، كما قدم الجار والمجـرور (بالآخـرة) وأعيـد الضمير (هم) للتأكيد وتقـوية الحكم ، لأن الإيقـان بالآخرة من الأمور الغيبيـة التى يحتاج إثباتها إلى توكيد وتحقيق ، وأما الصـلاة والزكاة ، فليس الأمـر فيهما كذلك ...

---

(٥) هذا ولك أن تجعل الموصول (الذين يقيمون) صفة كاشفة للمحسنين أو بدلا منه أو عطف بيـان ، ولك أن تجعـله منصوبا بفعل محذوف علي القطع ، والأولي أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف ، كما أوضحنا

*

وقد تقدم عند حديثنا عن قوله تعالى : **(وبالآخرة هم يوقنون)** فى سورة البقرة أن تقديم الجار والمجرور (بالآخرة) أفاد الاختصاص ، فإيقانهم مقصور على حقيقة الآخرة ، لا يتعداها إلى خلاف حقيقتها ، وهو ما عليه أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ، كما أفاد تقديم المسند إليه (هم) على خبره الفعلى (يوقنون) أن اختصاص الإيقان بالآخرة مقصور عليهم لا يتجاوزهم إلى الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب ..

أما التقديم هنا فلم يفد اختصاصا ، وإنما أفاد المبالغة فى التوكيد وتقوية الحكم - كما ذكرنا - ويرجع ذلك إلى ما اقتضاه السياق فى سورة البقرة من تعريض بأهل الكتاب وإبطال اعتقادهم وزعمهم فى الإيقان بالآخرة حيث قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، ولم يقتض السياق هنا ذلك التعريض ، وبذا يتضح لنا أن دلالة التقديم على الاختصاص خاضعة لما يقتضيه السياق وقرائن الأحوال فيه ..

وفى قوله تعالى : (يقيمون) مجاز ، إما مجاز مرسل ، وإما استعارة تبعية ، وقد سبق إيضاح ذلك عند حديثنا عن آيات سورة البقرة ، كما أوضحنا هناك معنى الصلاة ، والمراد منها ، فعد إليه وتأمله(٦) ..

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)

عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) للدلالة على التعظيم وعلو المكانة ، حيث نزل البعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، وقد فصلت هذه الآية عما قبلها للاستئناف البيانى ، حيث وقعت جوابا لسؤال

---

(٦) ارجع إلى ص ١٤، ١٥ .

قـد انبعث من الآيات قبلهـا ، وكان سـائلا سـأل : ما جـزاء هـؤلاء المحسنين ، الذين جعـل القـرآن لهم هـدى ورحمـة ، واتصفوا بتلك الصفات ؟ فجاء الجواب : (**أولئك على هدى من ربهم ...**) .

وفضلا عما يفيده اسم الإشـارة (أولئـك) من الدلالة على التعظيم وبعد المكانة ، فإنه يدل على أن المشـار إليهم جديرون من أجل صفاتهم المتقدمة باكتسـاب الجـزاء الوارد عقب اسم الإشـارة ، حيث صـاروا أهـلا له بما تقدم لهم من صفات ، وهذا شـأن اسم الإشـارة عندما يرد بعد صفات المشـار إليـه المتعددة ، ثم يجىء الجـزاء عقبه فيسند إليه ، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق(٧) ...

وفى قوله تعـالى : (**أولئـك على هـدى**) استعارة تبعيـة فى الحرف (على) حيث شبه تمسـك المحسنين بالهـدى وتمكنهم منـه ، باستعـلاء الراكب ما يركبه بجامع التمكن والاستقرار ، ثم استعير للمشبه الحرف الموضوع للاستعلاء (على) وفى إيثـار التعبير بالحرف (على) دلالة على التعظيم والتكريم ، والرفعـة والسمو ، وذلك لأنه موضـوع للدلالة على الاستعـلاء ..

ولذا وجدناه فى القـرآن الكريم مع الهـدى ، يصـور ويبرز مكانة المهتدين وبعد منزلتهم ، ووجدنا مع الضـلال والكفر ، والطغيان والغى ، الحـرف (فى) حيث يصـور انغماس الـكفار والضـالين فى كفـرهم وضلالهم ، ويبرز هبوطهم وسقوطهم فى مهاوى الضـلال والغى والعناد ، ولننظـر فى الآيات الكريمة : « **وادع إلى ربك إنك لعلى هـدى مستقيم ... ولو شـاء الله لجمعهم على الهـدى ... أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى .. وإن كانوا من قبل لفى ضـلال مبين ... قال المـلأ من قـومه إنا لنراك فى ضـلال مبـين ... الله يستهزىء بهم ويمـدهم**

---

(٧) ارجع إلى الصفحات : ١٩، ٤٦، ٧٧، ٧٨ .

فى طغيانهم يعمهون ••• وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون •• وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ••• »(٨) ، نجد أن التعبير بالحرف (على) قد أفاد التمكن من الهدى تمكن استعلاء وسمو وبعد مكانة ، وأن التعبير بالحرف (فى) قد أفاد التمكن من الضلال والطغيان والغى تمكن انحطاط وسقوط ، وهبوط إلى المهاوى ، تحقيرا للكفرة والضالين وحطا من شأنهم ••

وتنكير (هدى) يدل على التعظيم ، وأنه نوع مبهم من الهدى ، لا يعرف ولا يدرك كنهه ، ولا يحاط به ، ولذا وصف بالجار والمجرور (من ربهم) مبالغة فى التعظيم والتفخيم والإبهام ••

وقد وصل بين جملتى (**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**) للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، ووجود المناسبة ، وأما قوله تعالى : « **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** »(٩) ، فقد فصل بينهما لوجود المانع الذى يمنع الوصل ، إذ الجملة الثانية مقررة لما فى الأولى ، ومؤكدة لمعناها ، فبينهما من التداخل والتشابك والاتصال الداخلى ما يمنع الوصل بالواو ، ولذا فصل بينهما لكمال الاتصال ••

وقد قصر الفلاح على اسم الإشارة (أولئك) المشار به إلى المحسنين قصرا حقيقيا ، وطريق القصر تعريف الخبر بأل التى للجنس فالفلاح مقصور على المحسنين لا يتعداهم إلى غيرهم قصر صفة على موصوف ، و (هم) ضمير فصل مؤكد للاختصاص •

---

(٨) الآيات بالترتيب : الحج : ٦٧ ، الأنعام : ٣٥ ، العلق : ١١ ، آل عمران : ١٦٤ ، الأعراف : ٦٠ ، البقرة : ١٥ ، الأعراف : ٢٠٢ ، سبأ : ٢٤ •

(٩) الأعراف : ١٧٩ •

وتكرار اسم الإشــارة (أولئــك) يدل على اختصاصهم بكل صفة من الصفتين (الهــدى) و (الفــلاح) على حدة ، ويشعر بكمالهما فى المحسنين ، وأن الصفة الواحــدة منهما لو انفــردت لكفت مميزة لهم ، وأغنت عن الأخــرى ..

(ومن النــاس من يشــترى لهو الحــديث ليضــل عن سبيــل الله بغير عــلم ويتخذها هــزوا أولئــك لهم عذاب مهــين) .

الواو فى قوله تعــالى : (**ومن الناس**) واو القصــة ، وهى التى تعطف عدة جمــل مسوقة لغــرض على عدة جمل مسوقة لغرض آخــر ، ويشترط فيها المناسبة بين غرضى الكلام ، لا بين جمــل القصــتين ، فهى عاطفة لقصــة هذا الكافر الذى يشــترى لهو الحديث ، على قصــة أولئك المحسنين الذين ازدادوا هدى ، واختصوا بالفلاح ...

وقد نزلت هــذه الآية فى النضر بن الحارث « وكان يتجــر إلى فارس ، فيشترى كتب الأعاجم ، فيحدث بها قريشــا ويقول : إن كان محمــد يحدثكم بحديث عاد وثمــود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ..

وقيــل : كان يشترى المغنيات ، فلا يظفــر بأحد يريد الإســلام ، إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه وأسقيه وغنيــه ، ويقول : هــذا خــير مما يدعــوك إليــه محمــد من الصــلاة والإســلام ، وأن تقــاتل بين يديه »(١٠) .

وعندما نتأمل آيات الذكــر الحكيم ، وكذا أحاديث النبى ـ ﷺ ـ لا نجد إفصــاحا وتحديدا لهؤلاء المعــاندين ، بل نجد تعميما ، ولنقرأ : **« ومن النــاس من يعجبــك قــوله فى الحيــاة الدنيــا ويشهد الله على**

---

(١٠) الكشاف ٣/٢٢٩ .

ما فى قلبه وهو الد الخصام ... ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ... ومن الناس من يعبد الله على حرف ... »(١١) ، ونجد فى الحديث كثيرا ، نحو قوله - ﷺ - : ما بالُ أقوام يفعلون كذا ... ولعل سبب ذلك يرجع إلى ترغيب هؤلاء فى الإسلام ، واستمالتهم إليه ، لأن فى تخصيصهم ومواجهتهم بما يصنعون ، تنفيرا لهم ، فيزدادون بعدا عن الحق والخير ..

والمراد بالشراء فى قوله تعالى : (**يشترى لهو الحديث**) إما حقيقته على ما روى من شراء النضر كتب الأعاجم أو القينات ، أو شراء غيره مثل هذه الأشياء ، وإما أنه استعارة تبعية فى الفعل (يشترى) حيث استعير الشراء للاستبدال والاختيار ، ثم اشتق منه (يشترى) بمعنى يستبدل ، كما فى قوله تعالى : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** »(١٢) ، وقوله عز وجل : « **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا** »(١٣) ، والمعنى عليه : ومن الناس من يختارون حديث الباطل ويستحبونه ويستبدلونه بحديث الحق ..

والإضافة فى قوله تعالى : (لهو الحديث) بيانية بمعنى (من) لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره ، فبين بإضافته إلى الحديث ، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى (من) التبعيضية ، كأنه قيل : ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو منه ، وعلى كل فإن الغرض من الإضافة تحقير المضاف إليه ، فهو حديث لهو وباطل ، وليس حديث حق وخير ..

وفى قوله تعالى : (**ليضل عن سبيل الله**) حذف مفعول (يضل)

---

(١١) الآيات بالترتيب : البقرة : ٢٠٤، ٨ ، والحج : ١١ .
(١٢) البقرة : ١٦ .
(١٣) آل عمران : ١٧٧ .

وتقديره : ليضل الناس ، وهذا الحذف يشعر بأن المضل يبذل قصارى جهده فى الإضلال ، فهو لا يدع احدا يظفر به إلا تفنن فى صده وإضلاله عن سبيل الله تعالى ..

وقرىء (ليضل) بفتح الياء مضارع (ضل) اللازم ، والمعنى : ليثبت على ضلاله ، ويزداد ضلالا على ضلال ، أو على وضع (يضل) بفتح الياء ، موضع (يضل) بالضم ، من جهة أن من أضل غيره يكون ضالا لا محالة ، فدل بالرديف وهو الضلال على المردوف وهو الإضلال ، ووجه الدلالة أن المراد بالضلال : الضلال المضاعف فى شأن من جانب سبيل الله تعالى وتركه رأسا ، وهذا الضلال لا ينفك عن الإضلال ، وكذلك العكس ..

والجار والمجرور فى قوله تعالى : (بغير علم) يتعلق إما بقوله تعالى : (يشترى) والمعنى : يشترى لهو الحديث حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه ، أو غير عالم بالتجارة وغير بصير بها ، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ، على حد قوله تعالى : « **فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** »(١٤) أى : وما كانوا مهتدين للتجارة ، بصراء بها ..

وإما متعلق بقوله تعالى : (ليضل) ، والمعنى : ليضل عن سبيل الله تعالى جاهلا أنها سبيل الله ، أو جاهلا أنه يضل عنها ، أو جاهلا الحق ..

وفى إيثار التعبير بالفعل المضارع (يشترى ... ليضل ... ويتخذها ..) ما يدل على مواصلة العناد والاستكبار ، والصد عن سبيل الله ، حيث يدل المضارع على التجدد والاستمرار ..

---

(١٤) البقرة : ١٦ .

هـذا وعند التأمل فى نظم الآية الكريمة يتضح لنـا أنه قد بولغ فى تصـوير عناد من يشترى لهو الحديث ، واستكباره ، وإعراضـه عن الحق ، من جهات عـدة :

١ - أن الذى يشتريه إنما هو اللهو من الحديث ، فقد ترك جانب الخير والحق ، وأقبل على شراء اللهو والباطل منه ٠

٢ - الغـاية من الشراء هى الضـلال والإضـلال وصد الناس عن القرآن ودين الإسـلام ٠٠

٣ - جهـله بهذا الذى يصنعه (بغير عـلم) فقد أصم أذنيـه ، وأبى سماع الحق والانصياع له ٠٠

٤ - اتخاذه سبيل الله وهى الإسـلام والقـرآن هزوا ، فهو يهزأ بها ، ويسخر منهـا ، ويبغيها عوجا ، وقد وقف نفسـه لهـذا ، واتخذه طريقا لا يحيد عنـه ٠٠

ولذا كان جزاؤهم الإبعـاد عن رحمـة الله ، واستحقاق العـذاب المهين (**أولئـك لهم عذاب مهـين**) ، فالتعبير باسم الإشـارة الموضوع للبعيد (أولئـك) يدل على بعد المنزلة فى الشـر والانحطاط والطرد من رحمـة الله ، تنزيلا للبعد المعنـوى فى التحقير والذم منزلة البعـد الحسى ٠٠

كما يدل اسم الإشـارة (أولئك) على أن المشـار إليـه قد استحق الجزاء المذكور بعد ، وهو العذاب المهين من أجل تلك الصفات المتقدمة ، الشـراء ، والإضـلال عن سبيل الله ، واتخاذها هـزوا ٠٠

ولا يخفى عليـك أن الجمـع فى اسم الإشـارة والضمير (أولئك لهم) باعتبـار معنى (من) والإفـراد فى قوله تعـالى : (يشترى ٠٠ ليضـل ٠٠ ويتخذها ٠٠ تتلى ٠٠ ولى ٠٠ يسمعها ٠٠ أذنيـه ٠٠ فبشره) باعتبـار لفظهـا ٠٠

وفى تقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى : **(لهم عذاب مبين)** ضرب من التوكيد ، والمبالغة فى استحقاقهم العذاب ، وقد نكر (عذاب) للدلالة على التعظيم والتهويل ، كما يدل على ذلك أيضا وصفه بقوله تعالى (مهين) أى : لهم عذاب عظيم هائل بسبب استكبارهم وصدهم عن سبيل الله ..

(وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم) .

عطفت هذه الآية على قوله تعالى (يشترى لهو الحديث) ، والمعنى : ومن الناس من يشترى لهو الحديث ويولى مستكبرا إذا تليت عليه آياتنا ..

وعبر بإذا للدلالة على تحقق وقوع الشرط ، فإن تلاوة الآيات عليه قد تحققت ، ومع ذلك لم يسمع ، وولى مستكبرا ، وهذا يشعر بشدة العناد والإصرار على التولى والإعراض ..

والتعبير بالفعل المضارع (تتلى) وبناؤه للمفعول ، للدلالة على تجدد التلاوة واستمرارها ووقوعها من جهات متعددة ، إذ المضارع يدل على التجدد والاستمرار ، وبناؤه للمفعول وحذف الفاعل يجعل النفس تذهب كل مذهب فى تقدير الفاعل المحذوف ، فهو إما النبى ـ ﷺ ـ وإما المؤمنون ـ الصحابة رضى الله عنهم ـ وهذا يعنى أن التلاوة أتتهم من جهات عدة ، وكانت مستمرة متجددة ، فلا عذر عندئذ لمن أعرض وتولى مستكبرا ..

كما أن تقييد الفعل (تتلى) بالجار والمجرور (عليه) وتقديم هذا القيد على نائب الفاعل (آياتنا) يقطع أى عذر لهم فى الإعراض، فالآيات لم تتل فقط ، وإنما تليت عليه ، وقرعت أذنيه ، ولا سبيل أمامه إلا الإذعان والقبول أو العذاب الشديد إن تولى وأعرض ..

وإضافة الآيات إلى (نا) العظمة فى قوله تعالى : (**آياتنا**) للدلالة على التعظيم والتفخيم ، كما أن التعبير عن الإعراض بالفعل الماضى (ولى مستكبرا) يدل على تحقق وقوعه ، ثم أكد هذا الوقوع بالحالين : (**مستكبرا كأن لم يسمعها**) ، فالحال الأولى تدل على المبالغة فى التكبر ، لأن الاستفعال بمعنى التفعل ، والحال الثانية تدل على أنه قد أصم أذنيه ، وأبى إلا التولى والإعراض ..

وقد شبهت حال المتكبر فى إعراضه تكبرا وقد سمع الآيات ، بحال من لم يسمعها ، وذلك فى قوله تعالى : (**ولى مستكبرا كأن لم يسمعها**) ، ويشعر هذا التشبيه بأن من سمع الآيات لا يتصور منه التولى والاستكبار ، اللهم إلا إذا أصم أذنيه ، وصارت حاله حال من لم يسمع ، وذلك لما فى الآيات من الأمور الموجبة للإقبال والخضوع ..

ولذا رأينا المشركين يبالغون فى الإعراض عن القرآن وصد الناس عنه ، والامتناع عن سماعه ، حتى لا يأخذهم ما فيه وهم أرباب الفصاحة والبيان ، وقد صور القرآن رفضهم سماعه ، ولغوهم عند تلاوته حتى لا يسمع الناس ، فقال تعالى : (**فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ... وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** »(١٥) .

وقوله تعالى : (**كأن فى أذنيه وقرا**) تشبيه آخر لحال من أعرض متكبرا بحال من فى أذنيه صمم مانع له من السماع ، وأصل الوقر : الحمل الثقيل ، استعير للصمم ، ثم غلب حتى صار حقيقة

---

(١٥) الآيات بالترتيب : فصلت : ٤، ٥، ٢٦ .

فيــه ، وتشديد نون (كأن) الثانية يناسب ثقــل الوقــر ، الذى صــار حقيقــة فى صمم الأذنين ..

ونلاحظ الترقى فى ذم هؤلاء المتكبرين ، حيث شبهوا أولا بحال من لم يسمــع الآيات ، ثم شبهوا ثانيــا بحــال من فقد السمع كليــة ، وصــار فى أذنيــه وقــر ، مبالغة فى الذم والتقبيح ..

وقد فصلت الجمــلة الثانية **(كأن فى أذنيــه وقــرا)** عما قبلهــا **(كأن لم يسمعهــا)** لــكمال الاتصــال ، لأن الثانيــة مقــررة ومؤكدة للأولى ، أو منزلة منها منزلة البدل أو عطف البيــان ..

والأمــر فى قوله تعــالى : **(فبشره بعذاب أليم)** للإهانة والتحقير والإذلال ، ومثــله قوله تعــالى : **« ذق إنك أنت العزيز الكريم »**(١٦) وقوله عــز وجــل : **« بشــر المنافقــين بأن لهم عــذابا أليمــا »**(١٧) ، والعذاب الأليم ينذر ولا يبشــر به ، والحميم والغسلين ورضف جهنم لا يذاق ، وإنما يغص ، ففى (بشــر وذق) استعــارة تهكمية عنادية ، وتنكير (عــذاب) ووصفه بقوله تعــالى : (أليم) يدل على التعظيم والتهــويل ، أى : فبشره بعذاب عظيم هائل ، لا يدرك كنهه ، ولا يحيط به الوصف لإبهــامه وفخامته ..

(إن الذين آمنـــوا وعمــلوا الصــالحات لهم جنــات النعــيم . خــالدين فيهــا وعد الله حقــا وهو العــزيز الحكيم) .

بيان لحــال المؤمنين بآيات الله عقب بيــان حال الكافرين بهــا ، وقد فصــل عما قبله للاستئناف البيــانى ، وكأن ســائلا سأل : إن كان هــذا حال الكافرين ، الذين استكبروا وأعرضوا عن آيات الله ، فما حال

---

(١٦) الدخــان : ٤٩ .
(١٧) النســاء : ١٣٨ .

للمؤمنين بهـا ؟ وما جـزاؤهم عند ربهم ؟ فجاء الجواب : **(إن الذين آمنــوا •••)** •

وقد أكد الخبر بإن تحقيقـا لوعد الله تعـالى ، ولم يلتفت فى هذا التأكيد إلى حال من أحوال المخاطب ، لأن حال المخاطب لا يعول عليها دائمـا فى إلقـاء الخبر ، بل قد يعـول على غيرها ، كما هنـا، فقـد أكد الخبر لتحقيق الوعد ، وقد يؤكد لتحقيـق الوعيد ، كقـوله تعـالى : **« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لهـا واردون »**(١٨) ولغـرابة الخبر كقوله تعـالى : **« فلمـا أتاها نودى من شـاطىء الواد الأيمن فى البقعـة المبـاركة من الشجـرة أن يا مـوسى إنى أنا الله رب العـالمين »**(١٩) إلى غير ذلك من الأمـور التى يعـول عليها فى توكيد الخبـر(٢٠) ••

وقد جاء المسند إليـه اسم موصول (الذين) حيث تومىء جمـلة الصـلة **(آمنـوا وعمـلوا الصـالحات)** إلى وجه بناء الخبر ، فمن قرأ جمـلة الصـلة هذه ، أدرك نوع الخبر ووقف عليـه ، وعلم أنه جـزاء حسن ، لأن الصلة إيمان وعمل صالح ، والجزاء من جنس العمل ••

وحذف الموصوف فى قوله تعـالى : **(وعمـلوا الصالحات)** ، إذ التقدير : وعملوا الأعمـال الصـالحات ، وقد كثر حذف هذا الموصوف حتى صارت الصفة (الصالحات) من الصفات الغالبة ••

وإضـافة الجنات إلى النعيم فى قوله تعـالى : **(جنات النعيم)** ، باعتبـار اشتمالها عليـه ، كقولنا : كتب البـلاغة وكتب النقد ، وتدل هـذه الإضـافة على كثرة النعيم وشهرته ، كما تدل بطـريق برهـانى

---

(١٨) الأنبيـاء : ٩٨ •
(١٩) القصص : ٣٠ •
(٢٠) ارجع إلى كتابنا علم المعانى : ١/٥٠ •

على أن للمؤمنين نعيم الجنات ، لأن من ملك الجنات ملك نعيمها ؛ ولذا كانت إضافة الجنات إلى النعيم (جنات النعيم) أبلغ من إضافة النعيم إليها في نحو قولنا : نعيم الجنات ، إذ لا يستدعي هذا القول أن تكون نفس الجنات ملكا لهم ، فقد يتنعم بالشيء غير مالكه ..

وقوله تعالى : (**وعد الله حقا**) مصدران مؤكدان ، الأول مؤكد لما هو كنفسه ، والثاني مؤكد لغيره ، لأن قوله تعالى : (لهم جنات النعيم) في معنى : وعدهم الله جنات النعيم ، فأكد معنى الوعد بالوعد ، وأما (حقا) فدال على معنى الثبات ، وقد أكد به معنى الوعد ، ومؤكدهما جميعا واحد ، وهو قوله تعالى : « **لهم جنات النعيم** »(٢١) ..

وقد قصرت العزة والحكمة على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا في قوله تعالى : (**وهو العزيز الحكيم**) وطريق القصر تعريف المسند بأل التي للاستغراق ، كما يقال : زيد الشجاع وعمرو الكريم في قصر الشجاعة على زيد ، والكرم على عمرو ، مع ملاحظة أن القصر في الآية الكريمة قصر حقيقي تحقيقي - كما ذكرنا - وأما في المثالين فهو قصر حقيقي ادعائي ، أو قصر إضافي ، حسبما يظهر لنا من السياق وأحوال المخاطب فيه ..

وختام الآية الكريمة بالعزة والحكمة يتناسب ويتلاءم مع ما ذكره الله عز وجل في الآيات من وعيد للكفار ، ووعد للمؤمنين ، فمعنى (العزيز) الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه ، فيمنع من إنجاز وعده وتحقيق وعيده ، بل يقدر على الشيء وضده ، فيعطي النعيم من شاء والبؤس من يشاء ، ومعنى (الحكيم) الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه

---

(٢١) انظر الكشاف : ٣/٢٣٠ .

الحكمة والعدل ، ويعـرف هذا التناسب فى البديع بتشـابه الأطراف ، والجمـلة ـ جملة (**وهو العـزيز الحكيم**) ـ تذييل مقـرر لمـا ذكـر فى الآيات الكريمة من وعد ووعيد ..

(خلق السموات بغير عمـد ترونهـا والقى فى الأرض رواسى أن تميـد بكم وبث فيهـا من كل دابة وأنزلنـا من السماء ماء فأنبتنـا فيها من كل زوج كـريم • هـذا خلق الله فأرونى ماذا خلـق الذين من دونه بل الظـالمون فى ضـلال مبـين) •

لمـا ختمت الآيات السابقة بقوله تعـالى : (**وهو العـزيز الحكيم**) استأنف عـز وجل لبيـان مظاهر عـزته وحكمته ، والاستشهاد بما فصل على كمال قـدرته وكمال علمـه تعـالى ، وهو استئناف بيـانى حيث تتجلى عـزة الله تعـالى ، وتظهر حكمته التى هى كمال العلم ، فيما ذكر مما أبدعـه عز وجـل ، وخلقه فأحسن خلقـه ، وكأن سـائلا سـأل : فيم تتجلى عـزته تعـالى وحكمته ، وما مظاهرها فى الكون ودلائلها ؟ فيأتى الجواب : تتجلى فى خلق السموات بغير عمـد ..

وقد توالت تلك الجمل الخبرية : (خلق السموات ... **والقى فى** الأرض ... وبث فيهـا ... وأنزلنـا) ، ووصـل بينها بواو العطف تفصـيلا لمظاهر القـدرة ، وإتقـان الصنع ، ومجىء أفعـالها أفعـالا ماضية يدل على تحققها واستقرارها ، ويشعر بظهورها ووضوحها لمن أراد أن يتأمل ويتدبر ، وألقى السمع وهو شهيد ..

وقوله تعـالى : (ترونهـا) فصـل عما قبله للاستئناف البيانى ، وكأن سـائلا سـأل : ما الدليـل على كون السموات بلا عمـد ؟ فأجيب (ترونهـا) فهو مسوق لإثبات كونها بلا عمـد ، إذ لو كانت لها عمـد لرأيناها ، والضمير فى (ترونها) على هذا راجع إلى السموات ..

ويصح أن تكون جملة (ترونها) صفة لعمد ، والضمير على هذا يكون راجعا إلى (عمد) لا إلى السموات ، والمعنى : خلق السموات بغير عمد مرئية لكم ، وهذا يشعر وينبىء بأن الله تعالى عمدها بعمد لا ترى ولا تدرك ، وهى عمد القدرة الإلهية ، فتبارك الله أحسن الخالقين ..

ويشعر حرف الجر (فى) فى قوله تعالى : **(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم)** بتغلغل الجبال داخل الأرض ، وتمكن الأرض من الجبال تمكن الظرف من المظروف ، وقوله تعالى : **(أن تميد بكم)** تعليل للإلقاء ، والمعنى : وألقى فى الأرض رواسى شامخات كراهة أن تميد بكم ، أو لئلا تميد بكم ..

والتعبير بالبث فى قوله تعالى : **(وبث فيها من كل دابة)** وما فيه من معنى الإثارة والتفريق والانتشار ، قال تعالى : « **وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا** »(٢٢) ، وقال عز وجل : « **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** »(٢٣) ، يدل ذلك على مراد الله عز وجل من الخلق ، فإنه الانتشار فى الأرض ، وعمارة الكون بالحركة الدائبة ، وعدم الركون للدعة والتكاسل والتواكل ، وهذا ما نجده فى قوله تعالى : « **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ...** »(٢٤) ، وقوله عز وجل :-« **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** »(٢٥) .

---

(٢٢) الواقعة : ٥ ، ٦ .
(٢٣) القارعة : ٤ .
(٢٤) الجمعة : ١٠ .
(٢٥) الملك : ١٥ .

وعندما نتأمل نظم الآيتين الكريمتين نجد عدة التفاتات ، وراءها كثير من المعانى والأسرار البلاغية ، فقد التفت من الغيبة فى قوله تعالى : (خلق السموات ... والقى فى الأرض ... وبث فيها من كل دابة) إلى التكلم فى قوله عز وجل : **(وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها ...)** ويشعر هذا الالتفات بمزيد الاعتناء بأمر الإنزال والإنبات ، وذلك لتكررهما ، وتوقف الحياة وعمارة الأرض على الماء والنبات ، ولذا كان الالتفات ليسند الإنزال والإنبات إلى (نا) العظمة (أنزلنا .. فانبتنا) .

ثم التفت من التكلم فى قوله تعالى : **(وانزلنا من السماء ماء فانبتنا)** إلى الغيبة فى قوله عز وجل : **(هذا خلق الله)** ، وكان الأصل أن يقال : هذا خلقنا ، ونلحظ ما وراء هذا الالتفات من التصريح باسم الله الأعظم ، وما له من أثر فى تربية المهابة ، والإشعار بكمال القدرة وبديع الصنع ..

والتفت مرة أخرى إلى التكلم فى قوله تعالى : **(فأرونى)** وكان مقتضى الظاهر أن يقال : هذا خلق الله فاروه ، ونشعر بنبرة الوعيد والتحذير ، والتحدى والإعجاز ، وراء هذا الالتفات ، وكأنه التفات الغاضب المتوعد ..

وفى الآيتين التفات آخر من الخطاب فى قوله تعالى : (ترونها ... أن تميد بكم ... فارونى ..) ، إلى الغيبة ووضع الظاهر موضع الضمير فى قوله تعالى : **(بل الظالمون فى ضلال مبين)** ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : بل أنتم فى ضلال مبين ، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين :

أولهما : أن الخطاب فى الآيتين عام ، وليس فى كل المخاطبين فى ضلال مبين ، بل الظالمون منهم ، فوجب الالتفات ، وحسن ..

ثانيهما : أن فى الالتفات ووضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا على الكفار ، ووسمهم بتلك الصفة ، صفة الظلم ، للدلالة على أنهم بكفرهم واضعون للشىء فى غير موضعه ، ومتعدون عن الحد ، وظالمون لأنفسهم ، وهذا ما صيرهم فى ضلال مبين ، وعما قليل سيجعلهم فى عذاب مهين ..

والتعبير باسم الإشارة (هذا) فى قوله تعالى : (**هذا خلق الله**) ، إشارة إلى ما ذكر من أفعال القدرة والإبداع ، فيه تجسيد للمعنويات ، وإبرازها فى صورة مشاهدة محسوسة ..

والأمر فى قوله عز وجل : (فارونى) للتبكيت والإعجاز وإلزام الحجة عليهم ، وحثهم على تأمل ما يعبد من دون الله ، والوقوف على عجز تلك المعبودات ، وضعفها وضعتها ، قال تعالى : « **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** »(٢٦) .

والفاء فى قوله تعالى : (فارونى) فاء الفصيحة واقعة فى جواب شرط مقدر ، والمعنى : إذا علمتم ذلك وتدبرتموه ، ووقفتم على شىء من آثارة القدرة الإلهية ، فارونى ماذا خلق الذين من دونه ، ممن اتخذتموهم شركاء له ـ عز وجل ـ فى العبادة حتى استحقوا به عبوديتكم لهم ، والأمر والاستفهام للتبكيت والإعجاز وإلزام الحجة عليهم ـ كما ذكرنا ـ ..

ثم أضرب عن هذا التبكيت بتبكيت آخر فى قوله عز وجل : (**بل الظالمون فى ضلال مبين**) ، فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا

---

(٢٦) الحج : ٧٣ .

لمـــا استحقوا به العذاب ، وهو ظلمهم وتعديهم ـ كما ذكــرنا ـ وينبىء حــرف الجر (فى) بانـحطاط هؤلاء الظالمين ، وانغماسهم فى الضلال ، وهويهم إلى مهاوى الهلاك والعذاب ..

اللهم باعد بيننـــا وبين عذابك ، وقــربنا من رحمتــك ، وارزقنـــا فهما صحيحا لكتابك وســنة نبيــك ـ ﷺ ـ وجنبنـــا الزلل ، واجعــل القــرآن الكريم ربيــع قلوبنا ، وذهاب همنا وحزننا ، واجعــله شفيعا لنـــا يوم لقـــائك ، واغفــر وارحم وأنت خير الراحمين ...

★ ★ ★

القسـم الثـانى

من هـدى الحديث النبـوى الشـريف

١ ـ حديث : (الحـلال بين والحـرام بين ٠٠)

٢ ـ حديث : (يا غلام إنى أعلمـك كلمـات ٠٠٠)

٣ ـ حديث : (كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في سفر ٠٠٠)

عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » ... متفق عليه .

يعد هذا الحديث الشريف احد الأحاديث التى عليها مدار الإسلام ، وقد عظم العلماء أمره ، فعدوه رابع أربعة أحاديث ، تدور عليها الأحكام كما نقل عن أبى داود وهى :

١ - هذا الحديث ..

٢ - حديث « إنما الأعمال بالنيات .. » .

٣ - حديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » .

٤ - حديث « ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » .

وقد نظم بعضهم ذلك فقال :

عمدة الدين عندنا كلمات
مسندات من قول خير البرية
اترك المشبهات وازهد ودع ما
ليس يعنيك واعملن بنية

وعندما نتأمل الحديث لندرك ما فيه من المزايا والأسرار البلاغية - وهذا ما يعنينا - يتجلي لنا فيه :

إيجاز القصر فى قوله - ﷺ - « الحلال بين والحرام بين » فهذا التعبير يدل على معان كثيرة ، نحتاج للإفصاح عنها إلى ألفاظ وجمل عديدة ، فهو يدل على أن الحلال والحرام بينان واضحان جليان يعرفهما كل الناس ، ولا يحتاج أحد من الناس إلى من يعرفه الحلال والحرام ولا عذر لأحد يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحل ، لأن الحلال والحرام من الوضوح بمكان ، وهذه المعانى قد أديت بأوجز لفظ وأبلغه « الحلال بين والحرام بين » فهذا من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ..

وقد أعيد ذكر المسند (بين) ولم يكتف بذكره أولا مع الحلال ، فيقل : الحلال بين والحرام ، وذلك للدلالة على المبالغة فى وضوح كل منهما وبيانه ، وتميزه عن الآخر ، فالحلال بين متميز عن الحرام ، والحرام بين متميز عن الحلال ، ومن أجل ذلك أيضا ، لم يعطف الحرام على الحلال عطف مفرد على مفرد ، ويخبر عنهما بخبر واحد فيقل : الحلال والحرام بينان ..

ولا يخفى علينا الطباق بين (الحلال والحرام) وهذا الطباق مما يزيد المعنى جمالا ، ويثير النفس ، ويبعث فيها التأمل والنظر لإدراك ما وراء اللفظين ، وما ينبغى الالتزام به إزاء كل معنى من المعنيين ..

وفى قوله : « وبينهما مشبهات » نكرت « المشبهات » للدلالة على عظمها وخطورتها وخفاء حكمها ، فلا يدرى كثير من الناس أمن الحلال هى أم من الحرام ، ولذا قال : « لا يعلمها كثير من الناس » وفى هذا القول حذف للمضاف ، والتقدير : لا يعلم خطورتها وضررها ، أو لا يعلم حكمها كثير من الناس ، وهذا

الحذف ينبىء بشدة خفائها وعظم ضررها ، وما ينبغى على الناس إزاءها من الحذر والحيطة ..

ونفى العلم عن الكثرة يدل على أن هناك قلة من الناس يعلمون حكمها ، وينبغى الرجوع إليهم فيها ، وهؤلاء هم الراسخون فى العلم ، وهم نفر قليل ، قال تعالى : « **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** .. »(١) .

وقد وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله : « فمن اتقى الشبهات » إذ الأصل : فمن اتقاها ، وذلك للمبالغة فى وجوب اجتنابها ، والحذر من الوقوع فيها ، ولذا استخدم فى التحذير لفظ التقوى (اتقى) وهو إنما يستخدم فى الأمور العظيمة ، قال تعالى : « **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله** .. »(٢) وقال عز وجل : « **واتقوا النار التى أعدت للكافرين** »(٣) ..

وفى قوله : « استبرأ لدينه وعرضه » استخدم لفظ (استبرأ) للدلالة على المبالغة فى طلب البراءة ، يقال : استبرأت الشىء : أى طلبت آخره ، فالهمزة والسين والتاء للطلب ، يقال : استغفر أى : طلب المغفرة واستبرأ : طلب البراءة ، وفرق بين (استبرأ لدينه) وبرىء دينه ، كما أن زيادة اللام فى (لدينه) تدل على توكيد الحكم ، والمبالغة فى طلب البراءة ، وعطف العرض على الدين ينبىء بما يجب على الإنسان تجاه عرضه ، فواجبه أن يستبرىء

---

(١) النساء : ٨٣ .
(٢) الحديد : ٢٨ .
(٣) آل عمران : ١٣١ .

لـه ، كمـا يستبرىء لدينـه ، ووراء هـذه الإضـافة (لدينه وعرضه) ما يشعر بالتمـلك والحـوزة ، والذى يحـوز شيئا ويتملكه ، يصونه ويحافظ عليه ، ويدافع عنه ، ويستبرىء له ..

وفى قوله : « **ومن وقـع فى الشبهـات كـراع يرعى حـول الحمى يوشـك أن يواقعـه** » تشـبيه تمثيلى ، الغـرض منـه التحـذير من الوقـوع فى الشبهات ، حيث شـبه ـ ﷺ ـ حـال الذى لا يتحـرز عن الشبهات فيقـع فى الحـرام بحـال الراعى الذى يرعى حـول الحـمى المحظـور ـ حمى المـلوك ـ ولا يبتعـد عنـه ، فتغلبه غنمـه فتقـع فيمـا حمـاه المـلك فيتعرض للعقـوبة ..

وهـذا من قبيل تشـبيه المعقول بالمحسوس ، حيث مثـل ـ ﷺ ـ الأمـر المعنـوى المدرك بالعقـل بالأمـر المشـاهد المحـس ، ووجـه الشـبه هـو عـدم التحـرز من الوقـوع فيمـا يضـر فتحصل العقوبة ..

وكـان ملـوك العـرب يحمـون لمـراعى مواشيهم أماكن مختصة ، ويتوعدون من يرعى فيهـا بغيـر إذنهـم بالعقوبة الشـديدة ، فمثـل لهـم النبى ـ ﷺ ـ بمـا هـو مشهور عندهم لتتضح لهـم هـذه الحال المعنوية ، فالذى يخـاف يبعـد عن حـمى المـلك خشية أن تقع مواشيه فيـه ولـو اشـتد حـذره ، فالبعـد أسـلم ، وغيـر الخـائف يقترب ، ويرعى حـوله ، فـلا يأمن أن تقـع مواشيه فى شىء من الحمى بغيـر اختيـاره ، أو يغفـل فيقـع فى شىء منـه ، فالله عـز وجـل هـو المـلك حقـا وحمـاه محـارمه ..

وقـد وضـع الظاهـر موضـع الضمير أيضـا فى قـوله (ومـن وقـع فى الشبهات) إذ الأصـل : ومن وقع فيها ، مبالغـة فى التحذير ، وعبـر عن إتيـان الشبهات بالوقـوع المعـدى بالحـرف (فى) (ومن

وقـع فى) ليـدل على أن إتيـان الشبهات وفعلهـا ، إنمـا هـو هبوط وتـدن وسقوط إلى الهـاوية ..

وحـذف جـواب الشرط وتقـديره : ومن وقـع فى الشبهات وقـع فى الحـرام ، وهـذا الحـذف يشـعر بضرورة أن يظـل المؤمن بمناى وبمعـزل عن الحـرام وعن الوقـوع فيـه ، وكـأن حـذفه من اللفـظ يؤذن بضرورة طيـه من واقـع المسلمين وسقوطه من عالمهـم(٤) ..

والتعبيـر بالفعـل المضارع (يرعى) يـدل على حـدوث الرعى وتجـدده واستمراره ، ومن شـأن من يصـنع هـذا ، أى : يرعى رعيـا مستمرا متجـددا حـول حـمى المـلوك أن يقـع فى المحظـور ، ولـو عبـر بالمـاضى فقيـل : كـراع رعـا حـول الحـمى ، ما أدى هـذا المعـنى ..

وقـد حـذف مفعـول (يرعى) وتقـديره : يرعى إبلـه أو غنمه أو مواشيه ، وهـذا الحـذف يـدل على العمـوم ، وعـدم التقيد بمفعول خـاص أو بجنس خـاص من الدواب التى ترعى ، ويصـح إجـراء الفعـل المتعـدى هنـا مجـرى الفعـل اللازم فـلا ينـوى لـه مفعول ولا يـراد ، ويكـون المعنى على حـدوث الرعى ووقوعه دون نظـر إلى مفعـول ، أى : كـراع يكـون منـه رعى ..

وفى قـوله - ﷺ - (الا وإن لكل ملك حـمى ، الا إن حـمى الله فى أرضـه محـارمه ، الا وإن فى الجسـد مضـغة ..) .

---

(٤) هذا على جعل (من) شرطية وهو الأولى لثبوت المحذوف فى صحيح مسلم وغيره ، ويمكن إعراب (من) موصولة ، وعندئذ فـلا حذف إذ التقدير : والذى وقـع فى الشبهات مثل راع يرعى حول الحمى ..

استخدمت أداة التنبيه (ألا) للدلالة على تحقيق ما بعدها ، فهى لا تستخدم إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تأكيد وتحقيق ، كما مر بنا عند الحديث عن قوله تعالى : « **ألا إنهم هم المفسدون** » فى سورة البقرة(٥) ..

ولذا جاءت بعدها (إن) وكررت كل منهما (ألا وإن) وقدم المسند على المسند إليه فى (لكل ملك حمى) و (فى الجسد مضغة) وهذه كلها وسائل توكيد تدل على عظم الأخبار المذكورة وأهميتها ..

فقد بدأت بالتنبيه إلى أن لكل ملك حمى ، وتنكير (حمى) يدل على التعظيم وللتفخيم ، ثم جاء الخبر الثانى (ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه » فكررت فيه الأداة (ألا) الدالة على الاهتمام وإثارة الانتباه ، وقد أضيف الحمى إلى لفظ الجلالة ، (حمى الله) إشعارا بهيبته وارتفاع شأنه . وفى (حمى الله) استعارة تصريحية أصلية حيث شبهت المحرمات التى حرمها الله بحمى الملوك والعظماء ، يحمى فلا يقربه أحد ، ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه ..

ولعل فى ذكر الأرض (فى أرضه) ما يدل على أنها موطن هذه المخالفات فالوقوع فى الشبهات ، وفى المحرمات إنما يكون فى الأرض التى استخلف الله فيها آدم « **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم**

---

(٥) انظر ص ٣٥ .

مالا تعلمون .. »(٦) أمـا السماء فهى موطن الملائكة الذين « لا يعصون الله ما أمرهـم ويفعلون ما يؤمرون .. »(٧) .

ثم جـاء الخبـر الثالث : (ألا وإن فى الجسـد مضـغة) فكررت فيـه الأداة (ألا) مـرة أخـرى للتشويق ومضاعفة الانتبـاه ، وقـد دخلت هـذه المـرة على ما يتوقف عليـه صـلاح الجسـد أو فسـاده ، وهى المضـغة التى استعيرت هنـا للقلب بجـامع الصـغر فى كـل ، وقـد نكـرت للدلالة على تقليلها تعجبـا من أمرهـا ..

ولا يخفى علينـا أن الغـاية من إيـراد هـذه الأخبـار بهـذه الصـورة ، وعـلى هـذه الحـال ، من التنبيـه والتـأكيد والتشـويق والتحقيق ، إنمـا هى تنفيـر النفـوس وترهيبهـا لاتقـاء الشبهات ، احترازا من الوقوع فى الحـرام .

وقـد وجـدت واو العطف فى قـوله (ألا وإن لـكل ملك حمى) وقـوله (ألا وإن فى الجسـد مضـغة ... ألا وهى القلب » وتركت فى قـوله (ألا إن حـمى الله فى أرضـه محـارمه) فما سبب ذلك ؟

هـذه الـواو عاطفـة لمـا ذكـر بعدهـا على محـذوف مقـدر قبلهـا ، قـد عـلم من السـياق ، والتقـدير : ألا إن الأمـر كمـا تقدم من تشـبيه الحـرام بالحـمى والشبهات بمـا حـوله وإن لـكل مـلك حـمى ... ألا إن الأمـر كمـا ذكـر من وجـوب اتقـاء الشـبهات استبراء للدين والعـرض وإن فى الجسد مضـغة يصـلح الجسد بصلاحها ويـفسد بفسادها ... ألا إن الجسـد ليصـلح بصـلاح مضـغة ويفسـد بفسـادها وهى القـلب ..

---

(٦) البقـرة : ٣٠ .
(٧) التحـريم : ٦ .

والمناسبة المسوغة للعطف محققة بين المعطوف والمعطوف عليه المقدر ، إذ الحرام مشبه بالحمى ، والشبهات بما حوله ، وبين هذه الجملة وقوله (إن لكل ملك حمى) تناسب ومشاركة ..

وكذا بين (اتقاء الشبهات) وقوله (إن فى الجسد مضغة) مناسبة واضحة ، إذ الأصل فى اتقاء الشبهات والوقوع فيهما القلب فهو العماد ، وعليه صلاح الجسد إذا صلح ، وفساده إذا فسد ..

وأما ترك الواو فى الجملة الثانية (ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه) فلكمال الانقطاع ، وعدم وجود التناسب بين حمى الملوك وحمى الله ، فحمى الله هو الحمى الحقيقى وهو الجدير بأن يسمى حمى ، إذ لا ملك حقيقة ولا سلطان إلا لله الواحد القهار .

وقد أوثر التعبير بإذا فى قوله (إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله) للدلالة على أن صلاح الجسد لا يتحقق إلا بتحقق صلاح المضغة ، لأن (إذا) لتحقق وقوع الشرط ، كما أن فساده لا يكون إلا إذا تحقق فساد المضغة ، وذاك هو السر فى إيثار التعبير بإذا فى الموضعين ..

ولا تخفى علينا المقابلة بين الصلاح والفساد فى قوله (إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد) وهذه المقابلة تزيد المعنى جمالا ووضوحا ، لأن الضد يظهر حسنه الضد ، كما أنها تنبه النفوس ، وتحثها على النظر والتأمل للوقوف على حقيقة هذه المضغة والعمل على إصلاحها ليتحقق بصلاحها صلاح الجسد كله ..

وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير فى قوله (إن فى

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله) إذ الأصل : إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح كله ، وإذا فسدت فسد كله ، والسر البلاغى وراء العدول عن عن الضمير إلى التعبير بالاسم الظاهر فى الموضعين أن يقع الصلاح على لفظ الجسد ، ويسند إليه ، وكذلك الفساد ، فيتأكد بذلك مضمون الخبر ، إذ الإسناد إلى الظاهر يؤكد المعنى ويحققه ، فليس الإسناد إلى الضمير كالإسناد إلى الظاهر ..

★ ★ ★

- ٢ -

عن عبد الله بن عبـاس ـ رضى الله عنهمـا ـ قـال : كنت خـلف النبى ـ ﷺ ـ يومـا ، فقـال : (يا غـلام إنى أعلمـك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفـظ الله تجـده تجـاهك ، إذا سـألت فاسـأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعـلم أن الأمـة لـو اجتمعت عـلى أن ينفعـوك بشىء لـم ينفعـوك إلا بشىء قـد كتبـه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لـم يضروك إلا بشىء قـد كتبـه الله عليـك ، رفعـت الأقـلام وجفت الصـحف) ٠

رواه الترمذى ٠ وفى روايـة غيـر الترمذى :

(احفـظ الله تجـده أمامك ، تعـرف إلى الله فى الرخـاء يعرفك فى الشـدة ، واعـلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لـم يكن ليخطئك ، واعـلم أن النصـر مع الصـبر ، وأن الفـرج مع الكرب وأن مـع العسـر يسـرا) ٠

كثـر فى هـذا الحـديث الشريف أسلوب الأمـر وأسلوب الشرط ، وذلك ممـا يناسب مقـام النصـح والتعليم ، وقـد حفـل الحـديث بأسـرار بلاغية متنـوعة ، تـدل على جـوامع كلمـه ـ ﷺ ـ وعـلى تمكنه من لغـة البيان ، وإن من البيـان لسحرا ٠٠

ويفهـم من قـول ابن عبـاس ـ رضى الله عنهمـا ـ (كنت خلف النبى ـ ﷺ ـ يومـا) جـواز الإرداف على الدابة إذا أطاقته ، كمـا يـدل ذلك على مدى تواضعه ـ ﷺ ـ وتنكير (يومـا يدل على التقليل، أى : زمنـا قليلا أو سـاعة من نهـار ٠٠

وإيثـار التعبير بالحـرف (يـا) فى ندائه ـ ﷺ ـ عبد الله بن عبـاس (يا غـلام) وهـو قـريب منـه ، مردف خلفـه ، و (يـا) إنمـا ينـادى بهـا البعيد ، فهى موضوعة لـه ، تعظيما لعبـد الله بن

عباس - رضي الله عنهما - وإشعارا ببعد منزلته ، وحب النبى - ﷺ - وتقديره له ..

كما يدل على عظم الأمور الآتية بعد النداء ، وأنه ينبغى أن ينتبه لها وأن يهيأ الذهن ، ويوقظ الفكر ، ليصغى بعناية واهتمام إلى ما سيلقى من أخبار وتوجيهات ، فتقع عندئذ فى النفس ألطف موقع ، ويكون لها فيها أعظم الأثر ..

وقد رأينا أن النداء فى القرآن الكريم قد جاء بهذا الحرف (يا) (يا أيها الذين آمنوا ... يا أيها الناس ... يا آدم ... يا أيتها النفس ..) ، والله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، وإنما أوثر التعبير بما ينادى به البعيد لتهيئة النفوس لما سيلقى ، لأنها أمور مهمة ، ومعنى بها (٨) ..

(**إنى أعلمك كلمات**) تأكيد الخبر هنا بعد النداء لمزيد من التنبيه والإيقاظ ، فهو تنبيه آخر بعد التنبيه بالنداء ، لتتهيأ النفس أكمل تهيئة وتستيقظ أتم استيقاظ ، وتصبح مستعدة لتلقى ما يلقى ، ولا يخفى علينا أن تأكيد الخبر واقع من جهتين ، دخول إن على الجملة الاسمية ، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلى (أنا أعلمك) ، وقد مر بنا وجه دلالة هذا التعبير على التوكيد أو القصر حسبما يقتضى السياق (٩) ..

وتنكير (كلمات) للدلالة على التعظيم ، فهى كلمات قليلة فى ألفاظها ، ولذا عبر عنها بجمع المؤنث السالم وهو من جموع القلة ، فلم يقل : إنى أعلمك كلاما ، بل كلمات قليلة فى حروفها وألفاظها ، عظيمة فى فوائدها والانتفاع بها ..

---

(٨) ارجع إلى ص ٤٧ .
(٩) ارجع إلى ص ٤٤ .

وفى هـذا القول (إنى أعلمـك كلمـات) إبهام تتطلع النفس إلى بيـانه ، وتترقب إيضـاحه ، وقد جاء الإيضـاح فى قوله : (**احفـظ الله يحفظـك**) ، والإيضـاح بعد الإبهـام يجعل المعنى يتمكن فى النفس فضـل تمكن ، لأن الإبهـام والإجمال أولا ، جعـل النفس تترقب وتتطلع إلى توضيح المبهم وتفصيل المجمـل ، فعندما يأتى الإيضـاح والتفصيل يقـر فى النفس ويثبت ، لأنه جاءها وهى له مترقبة وإليه تتطلع ..

وفى قوله (احفظ الله) حذف المضـاف ، وتقديره : احفظ أحكام الله وشرائعه ودينه ، وفيه استعارة مكنية ، حيث شبهت الشرائع والأحكام بالشىء الذى يصـان ويحفظ من الضـياع والأذى ، ثم حـذف المشبه به ورمـز له بشىء من لوازمه وهو الحفظ (احفظ) ، وفى هـذا حث على الامتثـال وإقـامة شرع الله وتحقيقه ..

وفى قوله (يحفظـك) حذف الجـار والمجرور وهو المتعلق الثانى للفعـل وتقديره : يحفظك فى نفسـك وأهلك ودينك ودنيـاك ، وهـذا الحذف يفيد عموم الحفظ ، دون توقف عند محفوظ معين ، فمن حفظ الله ، والتزم أوامـره ، واجتنب نواهيـه ، وأسلم أمـره إليه ، حفظـه الله فى نفسـه ودنيـاه وأهـله وفى دينـه ، قال تعـالى : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفـه يحفظـونه من أمـر الله** »(١٠) ، وقـد حفظ الله الكنز تحت الجـدار للغـلامين اليتيمـين ، لمـاذا ؟ لأن أباهما كان صـالحا حافظا لله ، وقد ورد عن أحد الصـالحين مخاطبا ابنه : لأزيدن فى صلاحى من أجلك ، رجاء أن أحفظ فيـك ..

وقد فصـل بين هذه الجمل (يا غـلام ، إنى أعلمـك كلمـات ، احفظ الله يحفظـك) لكمال الانقطاع بلا إيهـام ، لأن الجملة الأولى نداء

---

(١٠) الرعـد : ١١ .

فهى إنشـائية لفظـا ومعنى ، والثانية خبرية لفظـا ومعنى ، والثالثة امـر فهى إنشـائية لفظا ومعنى ٠٠

أما الفصـل بين الجملتين (احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجـاهك) ، فلكمال الاتصـال ، لأن الجمـلة الثانية مؤكدة للأولى ، منزلة منهـا منزلة التأكيد المعنوى ، إذ يلزم من ثبوت معنى إحـداهما ثبوت معنى الأخـرى ٠٠

وقوله : (تجده تجـاهك) تمثيل لحفظه تعالى وإحاطته وتاييده للمؤمن وعـونه له ونصـره إياه ، فهو استعـارة تمثيلية ، ويصح جعله مجـازا مرسلا علاقته السببية ، حيث أطلق المعيـة وأراد العون والتأييد ، والحفظ والنصـرة والحراسـة وما إلى ذلك ، والقـرينة استحالة الحقيقة وهى المعية بالذات عليه تعـالى (١١) ٠

---

(١١) مثل هذه الصيغ والتعبيرات الواردة فى الحديث الشريف وآيات الذكر الحكيم والتى يوهم ظاهرها مشابهته تعـالى للحوادث ، كقوله تعـالى : (إن الله مع الصـابرين ٠٠ إن الله معنـا ٠٠ إن معى ربى ٠٠ وهو معكم أينما كنتم ٠٠ يد الله فـوق أيديهم ٠٠) وقوله عليه الصـلاة والسلام : (احفظ الله تجده أمـامك ٠٠ والذى نفسى بيده ٠٠) ونحو ذلك مما يوهم ظاهـره المشـابهة ، أوله المتأخرون ، وحملوه على المجـاز ، وحـددوا معنـاه فقالوا : المـراد باليد : القـدرة أو القـوة ، والمـراد بالمعيـة : النصـر والتأييد ، أو العـلم مجـازا مرسـلا حيث أطلـق السبب وأريد المسبب ، أو هو تمثيـل أى استعـارة تمثيلية لحفظـه تعـالى وتأييده المؤمنين ، وإحاطة علمـه تعـالى بالكفار والمنـافقين ، وتصـوير عدم خروجهم عنـه أينما كانوا ٠٠ أما علمـاء السلف فلم يمنعوا ما أجازه المتأخرون ، بل جعلوه احتمالا يحتمله الكلام ، ولم يلتزموه ، لأن القول بالالتزام قول بلا دليـل ، ولذا ينبغى

وإيثـــار التعبير بقوله (تجاهك) دون غيره من باقى الجهـات الست ـ فالتجـاه هو الأمام ، وقد صـرح به فى بعض الروايات ـ إشعارا بشـرف المقصد ، وبأن الإنســان مسـافر إلى الآخـرة ، والمسـافر إنما يطلب أمامه لا غير ، والمـراد تجده حيثما توجهت وتيممت وقصدت من أمـر الدنيـا والآخرة ، ففى (تجـاه) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، حيث أطلق الجـزء تجاه أى : أمام ، وأراد الكل وهو سـائر الجهـات الست ، وإيثـار (تجاه) بالتعبير يشعر بشرف المقصد ، كما أوضحنا ٠٠

ومعيــة الله تعــالى للعباد معية عامة ، وتلك تعنى المراقبة والإحاطة كما فى الآيات : « **يعـلم ما يلج فى الأرض وما يخـرج منهـا وما ينزل من السماء وما يعـرج فيهـا وهو معـكم أينمـا كنتم ٠٠٠ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ٠٠٠ ما يكون من نجـوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمســة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ٠٠** »(١٢) ٠

ومعية خاصــة ، وتلك تعنى : حفظه تعــالى للعبد وتأييده ونصره وعـونه وحراسته ، كما فى الآيات : « **لا تحـزن إن الله معنـا ٠٠ كلا إن**

=

السكوت عن الخوض فى تحديد معانى هذه الظواهر ، ويكتفى بمعناها الإجمــالى ، الصـارف لها عن الظـاهر ، ولعـل الذى ألجأ الخلف ، وهم المتأخرون ، إلى هــذا التحديد ظهـور بدع المشبهة والمجسمة وغيرهم ، فأرادوا سد باب الإيهــام ، ودفــع الوسـواس عن العـوام حتى لا يخــــرجوا عن دائرة التنزيه ، ولا يحوموا حول التشبيه ٠٠ ارجع إلى روح المعانى ١٦٨/٢٧ ، وانظر المختار من كنوز السنة للشيخ محمد عبد الله دراز ١٨٦ ، ١٨٧ ٠

(١٢) الآيات بالترتيب : الحديد : ٤ ، النساء : ١٠٨ ، المجادلة : ٧ ،

معى ربى سيهـــدين .. استعينـــوا بالصـــبر والصــلاة إن الله مـــع الصابرين .. »(١٣) .

والمعنى فى كل على المجــاز ، إما المجاز المرســل ، أو الاستعارة التمثيلية ، وفى تحديد المعنى المجــازى المــراد خلاف بين علماء السلف وعلمــاء الخلف ـ كما ذكــرنا ـ ، فعلمــاء الخلف قد حــددوا المعنى المجــازى المــراد ، وعلمــاء السلف لم يرتضوا هذا التحديد ، وجعلوه احتمــالا يحتمــله الكلام ، لا التزامــا يلتزم ، لأن القول بالالتزام قــول بلا دليــل ..

وفى قوله ﷺ : (احفظ الله تجــده تجاهك ، إذا ســألت فاســأل الله) ، فصــل بين الجملتــين لــكمال الاتصـــال ، لأن الثانيــة مؤكدة ومقــررة لمعنى الأولى ، فالأمــر بالتوجه إلى الله بالسؤال يؤكد ويقــرر معنى كونه ـ عز وجل ـ تجاه من يحفظه ، ولا يخفى علينا أن الجملة الثانيــة (إذا ســألت فاســأل الله) جمــلة إنشــائية ، إذ المعتد به فى الجمــلة الشرطيــة إنما هــو جــواب الشــرط ، وقد وقــع هنــا أمــرا (فاســأل الله) .

وفى قوله (إذا ســألت فاســأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) مجــاز مرسل علاقته المسببية ، إذ المــراد : إذا أردت أن تســأل فاسأل عن الإرادة ، كما فى قوله تعــالى : « **فإذا قــرأت القــرآن فاستعن بالله من الشيطــان الرجيم** »(١٤) ، والمعنى : إذا أردت أن تقــرأ فاستعذ ، فالاستعاذة مسببة عن الإرادة ، وواقعــة بعدها ، لأن المؤمن إذا أراد أن

---

(١٣) الآيات بالترتيب : التوبة : ٤٠ ، الشعراء : ٦٢ ، البقرة : ١٥٣ .
(١٤) النحــل : ٩٨ .

يقرأ يستعيذ بالله أولا ثم يقرأ ، فالإرادة تسبق الاستعاذة ، والاستعاذة تسبق القراءة ..

وقد عبر بإذا في الموضعين (إذا سألت .. وإذا استعنت) لأن سؤال المؤمن ربه وتوجهه إليه تعالى بالدعاء ينبغي أن يكون محققا وواقعا ، وكذا استعانته به وركونه إليه واعتماده عليه ، ينبغي أن يكون من الأمور المحققة الوقوع ، فالمؤمن يجب عليه أن يتجه إلى ربه بالسؤال ويطلب منه العون فهو وحده الوهاب والمعين ، وهو قريب من عباده ، يجيب دعاءهم إذا سألوه « **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** »(١٥) ، وخزائنه عز وجل لا تنفد « **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** »(١٦) ... « **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** »(١٧) ، ولا فائدة من سؤال غير الله لأنهم لا يملكون شيئا ، وإذا سأل المؤمن ، أو استعان بغير ربه ، وكله الله تعالى إلى هذا الغير فباء بالخسران المبين .

ولله در القائل :

لا تسألن بني آدم حاجة
وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله
وبني آدم حين يسأل يغضب

وقد رأى أحد من السلف الصالح رجلا يشكو إلى آخر فاقته وحاجته ، فقال له : يا هذا ، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ..

---

(١٥) البقرة : ١٨٦ .
(١٦) الحجر : ٢١ .
(١٧) النحل : ٩٦ .

وحذف متعلق (سألت ... واستعنت) والتقدير : إذا سألت أحدا ... وإذا استعنت بأحد ، وهذا التقدير - كما يقول عبد القاهر - تأباه النفس وتروم منك أن تنساه وتباعده عن وهمك وتجتهد ألا يدور في خلدك ، وألا يعرض لخاطرك ، وتتوقاه توقى الشيء يكره مكانه ، والثقيل يخشى هجومه (١٨) .

والسر البلاغى وراء ذلك أن الحذف قد جعل الاستعانة والسؤال منصرفين إلى الله ، متجهين إليه ، لا يروم العبد ، ولا يتطلع فى سؤاله واستعانته إلا إلى ربه ، ولا يخطر غير الله بخاطره ، وكأن الفعلين قد أجريا مجرى اللازم ، وصار المعنى : إذا كان منك سؤال ، وإذا وجدت منك استعانة ، فليكن لله وبالله ، وتقدير المحذوف يضيع هذا المعنى ، إذ يجعل اللفظ فى الشرط منصرفا لغير الله تعالى ..

وقد وصل بين هذه الجمل : (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة ...) للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع من الوصل ، فهى جمل إنشائية ، والمعول عليه فى الجمل الشرطية ، إنما هو جواب الشرط - كما ذكرنا - وهو هنا فعل أمر ، فاسأل ، فاستعن ، ولذا تكون الجمل الثلاث جملا إنشائية ، وقد اتحد فيها المسند إليه ، أو اتحدت هى فى المسند إليه ، وهو ضمير المخاطب :اسأل .. استعن .. اعلم ..

والتعبير بفعل الأمر (واعلم) لتنبيه المخاطب ، وإيقاظ المشاعر ، وتهيئة النفوس للتلقى ، والوقوف على ما يرد من أخبار ، فهو يستخدم فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تنبيه وإيقاظ وتهيئة ، قال تعالى : **« واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر**

---

(١٨) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١٧٤ .

لعنتم .. »(١٩) ، وقال عز وجل : « **واعلموا انما غنمتم من شىء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ..** »(٢٠) ، وقال جل وعلا : « **فإن تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** »(٢١) .

ومثل الأمر بالعلم ، الأمر بالسماع والعقل والنظر ، كما فى قول الرسول - ﷺ - فى خطبة الوداع : (أيها الناس اسمعوا قولى هذا واعقلوه فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ..) ، وكما فى قوله تبارك وتعالى : « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** »(٢٢) ، فإن المغزى من الأمر بهذه الأفعال، إنما هو إثارة الانتباه ، وإيقاظ الأحاسيس ، وتهيئة النفس للتلقى ..

وفى قوله : (**لو اجتمعت أمة على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ...**) .

عبر بأداة الشرط (لو) - وهى حرف امتناع لامتناع - فى جانب الاجتماع للنفع ، وعبر بالأداة (إن) - وهى لندرة وقوع الشرط واستبعاده - فى الجانب الآخر وهو جانب الاجتماع للضر ، وذلك للدلالة على أن اجتماع الأمة للإمداد والنفع من المستحيلات الممتنعة ، واجتماعهم للأذى والضر من الأمور الممكنة الجائزة ، وأقصى ما يمكن أن يقال عن اجتماعهم للشر والأذى ، إنه مستبعد نادر ، ولكن ليس محالا ، كالاجتماع للنفع والإمداد ..

---

(١٩) الحجرات : ٧ .
(٢٠) الأنفال : ٤١ .
(٢١) المائدة : ٤٩ .
(٢٢) يونس : ١٠١ .

ومما يلاحـظ من فـروق بين الشرطين : (لو اجتمعت ... وإن اجتمعوا) أن الضمير قد أفـرد فى الأول مراعاة للفظ الأمة ، وجمع فى الثـانى مراعاة لمعناها ، ووراء ذلك مغـزى بلاغى ينبغى التنبيه إليه ، وهو أن المـراد بالأمـة فى الحديث سـائر المخلوقات ، كما صرحت به رواية الإمام أحمد (فلو أن الخلق جميعا أرادوك ..) ، وأما فى اللغة فتطلق الأمـة على الجمـاعة ، وعلى أتبـاع الأنبيـاء ، وعلى الرجل الجامع للخير ، المقتدى به ، وعلى غير ذلك(٢٣) ..

فعندما أفـرد الضمير وقيل (اجتمعت) دل ذلك على أن الاجتماع لسـائر المخلوقات من إنس وجن وطير ودواب وغير ذلك ، فالاجتمـاع اجتماع نفـع ، وغير الناس لهم منـه نصيب ، ولكن اجتماع الأمة بهذا المعنى محال ، ولذا عبر بلو التى هى حرف امتناع لامتناع ..

وعندما جمع الضمير وقيل (اجتمعوا) دل ذلك على أن الاجتماع للنـاس خاصـة ، فالاجتماع اجتماع أذى وضـر ، وذا خاص بالناس ، وليس لغير الناس منه نصيب ، وصدق الله تعـالى : « **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمـر والنجـوم والجبال والشجر والدواب وكثير من النـاس وكثير حق عليه العذاب ..** »(٢٤) .

واجتماع الأمـة بهذا المعنى قد يكون نادرا ، أو مستبعدا ، ولكنه ممكن وليس محـالا ، ولذا عبر فيـه بإن التى تفيـد أن مدخـولها من

---

(٢٣) كالدين والمـلة (**إنا وجدنا آباءنا على أمـة**) ، والزمان (**وادكر بعد أمـة**) والرجل المنفـرد بدينـه (يبعث زيد بن عمـرو بن نفيـل أمة وحده) ، وعلى الأم كهـذه أمـة زيد أى : أم زيد ، فالأمة من الألفـاظ المشتركة التى تدل على معان كثيرة ..

(٢٤) الحـج : ١٨ .

الأمـور المـكنة ، دون (لو) التى تفيـد أن مدخولها من المستحيلات المتنعـة ..

وقـد عبر بالمـاضى (اجتمعت .. واجتمعـوا) ، والمعنى على الاستقبال للدلالة على تحقق الوقـوع ، والمعنى : لو كان اجتماع الأمـة محققـا وواقعـا ، واجتمعوا فعـلا ، فلن يكون منهم نفـع ولا ضـر ، ولو عبر بالمضـارع فقيـل : واعلم أن الأمـة لو تجتمع .. وإن يجتمعوا ، ما كان فى التعبير عندئذ دلالة على تحقق الوقـوع ..

والتعبير بالمصدر المؤول فى الموضعين (أن ينفعوك .. أن يضروك) دون المصـدر الصـريح : نفعـك وضرك ، ليتأتى التعبير بالمضـارع الذى يفيد الحـدوث والتجـدد والاستمرار ، فهم يجتمعون لا للنفـع والضر فحسب ، بل للتفنن فيهما والتصنع ، يتفننون كيف يحدثون النفع والضر ، وكيف يكون نفعهم متجددا ومستمرا ، وكذلك الضـر ، وبدون المضـارع لن يكون هذا المعنى ، فالمصدر الصـريح لا يؤديه ، ولذا عـدل عنـه إلى المصـدر المؤول ..

وقد استخدم الحـرف (على) فى الموضعين : (على أن ينفعوك .. على أن يضـــروك) للدلالة على تمكنهم وتحكمهم وسيطرتهم على وسـائل النفـع والضـر ، وفـرق بين : اجتمعـوا لينفعـوا ويضروا ، واجتمعـوا على أن ينفعوا ويضـروا ، إن (على) دلت على قـدرتهم وتمكنهم ، ومع القدرة والتمكن تفنن وتصنع فى كيفية النفـع أو الضر ، ومع هـذا وذاك لا يجدى ما يفعلون ولا يكون نفـع ولا ضـر إلا بما كتبه الله عـز وجـل ...

وتنكير (شىء) فى الموضعين : (على أن ينفعوك بشىء .. على أن يضروك بشىء) يدل على التقليـل والتحقـير ، أى : بشىء قليـــل

حقير ، ومع قلة الشيء وحقارته لا يجدى ما يصنعون ، وأما تنكير (بشىء) الواقع بعد أداة الاستثناء (إلا) فللدلالة على التعظيم ، لأنه شيء قد كتبه الله تعالى ، وما كتبه لك أو عليك لا يكون إلا عظيما جليلا ..

وجاء النفى بلم فى الموضعين : (لم يضروك .. لم ينفعوك) ، للدلالة على أن الضر والنفع مقطوع بنفيهما ، لا توقع لثبوتمها ، فإن منفى (لم) بالنسبة إلى المستقبل - كما هنا فى هذا الحديث - غير متوقع ثبوته ، وهذا أدل على نفى ضر الخلق ونفعهم ، لأنه باستخدام (لم) صار مقطوعا به ، لا توقع لثبوته (٢٥) .

وفى قوله (**لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك .. لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك**) قصر لصفتى النفع والضر على ما أراده الله للعبد وكتبه له وعليه ، وقد جاء القصر بالنفى والاستثناء ، تنزيلا للواضح المعلوم الذى لا يدفعه أحد ، منزلة المجهول الذى ينكره المخاطب، وذلك تنشيطا للهمم وحثا للعقول على الامتثال والإقبال على الله ، فهو وحده النافع الضار ، ومن التمس النفع عند غيره ذل وضل ، واستحق الردع والزجر ، لأنه صار كأنه ينكر ويجحد الأمور الجلية التى لا تجحد ..

وفى (كتبه الله) إيجاز بالحذف ، والتقدير : كتبته ملائكة الله بأمره تعالى وإرادته ، وهذا الحذف ينبىء بعظم المكتوب وشرفه ..

---

(٢٥) وأما المنفى بلم بالنسبة للماضى فثبوته متوقع ، كما فى قولك : ما لى قمت ولم تقم ، فالقيام متوقع ، لأن المنفى ماضيا ، وأما الحديث فالمنفى فيه فى المستقبل ، كما هو واضح . انظر مغنى اللبيب ١/ ٢٧٩ ..

ولا يخفى علينا الطباق فى قوله (أن ينفعوك ، ولم ينفعوك) ، وقوله (أن يضـروك ، ولم يضروك) وهما طباقا سلب ، وكذا الطبـاق بين الضـر والنفـع فى قـوله (أن ينفعوك ٠٠ أن يضـروك) ، وبين لك وعليك فى قوله : (كتبه الله لك ٠٠٠ وكتبـه الله عليـك) ، لأن فى اللام معنى النفـع ، وفى (على) معنى الضر ،قال تعـالى : « **لهـا ما كسبت وعليها ما اكتسبت** »(٢٦) ٠

وعلى الجمـلة ، ففى الحديث مقابلة بين قوله : (لو اجتمعت على أن ينفعـوك بشىء لم ينفعـوك إلا بشىء قد كتبـه الله لك) ، وقـوله : (وإن اجتمعـوا على أن يضـروك بشىء لم يضـروك إلا بشىء قد كتبـه الله عليـك) حيث قوبلت ثلاثة معـان ، وهى النفـع وعدم النفـع ولك بثلاثة معـان أخرى وهى الضر وعدم الضر وعليك ٠٠

ومن شـأن المقـابلة أو الطباق أن يظهر المعنى ، وأن ينبه الأذهان، ويحـرك العقول ، إذ يجمـع بين المعـانى المضـادة ، وبالوقوف عليها يزداد المعنى جمالا ، ورسوخا فى الأذهان ، واستقرارا فى العقول ٠٠

وقد فصـل قـوله ـ ﷺ ـ (رفعت الأقـلام وجفت الصحف) ، عما قبـله للاستئناف البيـانى المسمى بشبه كمال الاتصـال ، حيث تضمن الكلام السـابق سؤالا ، وقـع هذا القول جوابا له ، وكأن سـائلا سـأل لم انتفى نفـع الأمـة وضررها ، فلا تنفـع ولا تضـر إلا بشىء قد كتبـه الله عز وجـل ؟ فجاء الجواب : لأنه قد رفعت الأقلام وجفت الصحف ٠

أما الوصـل بين جملتى (رفعت الأقـلام وجفت الصحف) فللتوسط بين الكمالين مع عـدم المـانع من الوصـل ، حيث اتفقتـا فى الخبرية

---

(٢٦) البقـرة : ٢٨٦ ٠

لفظا ومعنى ، ووجدت المناسبة المصححة للعطف ، ومما حسن الوصل مجىء الجملتين على نسق واحد ، فكل منهما فعلية ، والفعل فى كل منهما مبنى للمفعول ، ونائب الفاعل جمع ، وهناك مراعاة نظير بين الأقلام والصحف .

وبناء الفعلين للمفعول (رفعت وجفت) يدل على التعظيم ؛ تعظيم قدرة الله عز وجل ، الذى يقول للشىء كن فيكون ، فحذف الفاعل للعلم به ، ولبيان كمال قدرة الله تبارك وتعالى ، والمراد بالأقلام : القلم الذى كتب به فى اللوح المحفوظ ، والمراد بالصحف : اللوح المحفوظ ، وقد جمعت هى والأقلام للدلالة على التعظيم ..

والتعبير (رفعت الأقلام ، وجفت الصحف) كناية عن القضاء الأزلى وفق العلم ، وتقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها ، وفيه حث للتوكل على الله عز وجل ، والإعراض عما سواه ، لأن من علم ذلك وشهد به وأيقن ، أقبل على خالقه ، وأعرض عن كل ما سواه .

وفى قوله : **(تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة)** طباق بين الرخاء والشدة قد جمل المعنى وقرره - كما ذكرنا - ومن دقائق التعبير فى هذا القول المخالفة بين الأمر وجوابه : تعرف إلى الله .. يعرفك ،، فلم يقل : تعرف إلى الله يتعرف إليك مثلا ، وإنما جاء فعل الأمر مشددا ومعدى بإلى ، وجاء جواب الأمر ثلاثيا ومعدى بنفسه ، وذلك لأن العبد هو الذى يحتاج فى تعرفه إلى الله - تعالى - إلى مشقة وجهد ، وبذل وتعمل ، وتفان فى التقرب إليه ، أما المولى جل وعلا ، فحاشا له أن يحتاج إلى ذلك ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، ولذا فهو يعرف عباده ، وعباده هم المحتاجون للتعرف إليه ، وهذا من دقائق التعبير فى الحديث النبوى الشريف ..

والتعـرف إلى الله فى الرخاء ، كناية عن الإخـلاص والتفـانى فى العمـل ، والإنفـاق فى طرق الخير ، والمبالغـة فى التقـرب إلى الله بشتى أنواع القـربات ، فإن التعـرف إلى الله يستلزم ذلك ..

ومعرفة الله العبد ، كناية عن تفضله تعالى عليه بإجابة الدعاء وحسن الثواب فى الدنيـا بتفـريج الكربات وتخليص الشدائد ، وفى الآخـرة بالفـوز بالجنـة والنعيم المقيم ..

وقد فصـل بين جملتى : (احفظ الله تجده أمامك ، تعـرف إلى الله فى الرخـاء يعـرفك فى الشـدة) لكمال الاتصـال ، لأن الجمـلة الثانية مقـررة ومؤكدة لمعنى الأولى ، فهى منزلة منهـا منزلة التوكيد المعنوى ، إذ يلزم من ثبوت معنى إحداهما ثبوت معنى الأخرى ..

وأما وصـل الجمـلة الثانية بما بعـدها : (تعـرف إلى الله ... واعلم أن ما أخطـأك لم يكن ليصيبك .. واعلم أن النصر مع الصبر ..) فللتوسط بين الكمالين مع عدم المـانع، إذ اتفقت هذه الجمل فى الإنشائية لفظـا ومعنى ، ووجد بينهـا التناسب المصحح للوصـل ..

والأمـر بالعـلم وتكراره فى قوله : (واعلم أن ما أخطـأك ... واعلم أن النصـر ...) للتنبيـه والإيقـاظ ، وتهيئـة النفوس لتلقى ما يتـلوه من أخبـار ، إشعارا بعظمها وأهميتها ، على نحو ما بينا فى قوله : (واعلم أن الأمـة ...) .

واستخـدام (ما) الموصـولة فى الموضعـين (ما أخطـاك ... ما أصـابك) للدلالة على التفخـيم والتعظيم ، وقد بولغ فى النفى فى قوله (لم يكن ليصيبـك ... لم يكن ليخطئـك) من جهـات ، وهى تسليط النفى على فعل الكينونة ، ودخول اللام المؤكدة للنفى على الخبر، وسـريان النفى فى الخبر ..

فما أخطأ الإنسان مهما كان عظيما ينبغى ألا يشغل به ، لأنه لم يقدر له وإنما قدر لغيره ، وما أصابه مهما بلغ عظمه ، فهو له ، ولن يتخطاه إلى غيره ، فعلى الإنسان ألا يفرح بما أوتى ، ولا يحزن على ما فاته « **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير • لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ••** »(٢٧) ، تلك هى الغاية من الدلالة على التهويل والتعظيم ، والمبالغة فى النفى فى قوله: **(ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك)** •

ووجود كلمة (مع) فى قوله : **(واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا)** ، يشعر برجاء النصر والفرج واليسر ، ويؤذن بسرعة حصول كل منها عند حصول مقابله ، وقد توالت هذه الجمل (الصبر مع الصبر •• الفرج مع الكرب •• مع العسر يسرا) بهذا الإيقاع السريع ، مما يشعر بالأمل، ويفتح باب الرجاء ، ويحث المؤمن على الإقبال على ربه ، وحسن التوكل عليه ••

ولا يخفى علينا مزية الطباق بين : أخطأ وأصاب ، ويخطىء ويصيب ، والفرج والكرب ، والعسر واليسر ، وما أحدثه هذا الطباق من إيضاح للمعنى وتقريره وترسيخه فى الأذهان ، وبعث للنفوس على النظر والتأمل لاختيار ما هو خير لها ، والإسراع إلى قبوله وإلى امتثاله ، والابتعاد عما هو شر وهلاك ••

وتنكير (يسرا) للدلالة على التعظيم ، كما جاء فى قوله تعالى : « **فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا** »(٢٨) ، أى : يسرا

---

(٢٧) الحديد : ٢٢، ٢٣ •
(٢٨) الشرح : ٥، ٦ •

عظيما ، ومن ثم ورد عنــه ـ ﷺ ـ : (لن يغلب عسـر يسـرين) فإن النكرة إذا كررت كانت الثانية غير الأولى ، والمعـرفة إذا أعيدت كانت الثانية عين الأولى غالبا فيهما ، وذلك هو المـراد فى الآية الكريمة ..

ومما يلاحظ فى الحديث الشريف أن لفظ الجلالة (الله) قد تكرر ثمانى مـرات فى ثمانية مواضـع ، ست مـرات فى رواية الترمذى ، ومرتين فى رواية غيره ، والغـرض من هـذا التكرار ، تربية المهابة ، وزيادة التمكين فى النفوس ، والتبرك والتمتع بالنطق بالاسم الجليل ..

كما يلاحظ أنه قد كثر أسـلوب الأمـر الذى يعقبه جواب (احفظ الله يحفظـك احفظ الله تجده .. تعـرف إلى الله .. يعـرفك ..) كما كثر أيضـا أسلوب الشـرط (إذا سـألت .. وإذا استعنت .. لو اجتمعت ... إن اجتمعوا) وهـذا مما يناسب مقام التعليم والإرشاد ..

ويعـد هـذا الحديث الشريف ، وما ورد به من تعبيرات ، أمثـلة واضحة ونماذج جليـة ، لجوامع كلمـه ﷺ (احفظ الله يحفظـك ... ما أخطـأك لم يكن ليصيبك .. تعـرف إلى الله فى الرخـاء يعرفك فى الشدة ... النصـر مع الصـبر ..) إلى آخـر ما قال ـ ﷺ ـ وما عليك إلا أن تعـود إلى الحـديث الشريف ، وتتذوق ، وتتأمل كل جمـلة من جمـله ليتضح لك ما وراءها من مقاصد جليـلة ومعـان غزيرة ، وتلك هى جوامع كلمــه ـ ﷺ ـ التى أتاه الله إياها .

★ ★ ★

(٣)

عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة ـ رضى الله عنه قال : « دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله تعالى عنهما ـ جالس فى ظل الكعبة ، والناس مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه ، فقال : كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى سفر ، فنزلنا منزلا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو فى جشره ، إذ نادى منادى رسول الله ـ ﷺ : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : (إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجىء فتن يرقق بعضها بعضا ، وتجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى ، ثم تنكشف ، وتجىء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذى يجب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه ، فاضربوا عنق الآخر » ، فدنوت منه فقلت له : أنشدك الله آنت سمعت هذا من رسول الله ـ ﷺ ـ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه ، وقال : سمعته أذناى ووعاه قلبى ٠٠ » رواه مسلم ٠

يتجلى لنا فى هذا الحديث الشريف ما كان عليه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من رغبة فى العلم ، وحرص على تلقيه ، ووعى وإدراك لما سمعوه من رسول الله ـ ﷺ ـ يظهر لنا ذلك جليا فى عبارات الحديث ، ولنتأمل : (جالس فى ظل الكعبة ٠٠ الناس مجتمعون عليه ٠٠ أتيتهم فجلست إليه ٠٠ سمعته أذناي ووعاه

قلبى ٠٠) ، فتلك الجمل تنبىء بما كانوا عليه من حرص ورغبة فى العلم ، ووعى وإدراك لما سمعوه من النبى - ﷺ - وانظر إلى التعبير باسمى الفاعل (جالس) ، (مجتمعون) ، ثم تأمل هذا القيد (عليه) والقيد الآخر (إليه) فاجتماعهم عليه لا حوله ، وجلوسه إليه لا عنده ، وعبد الله بن عمرو جالس فى ظل الكعبة، مواصل لجلوسه ، مستمر فيه ، والناس عليه مجتمعون ، مواصلون لاجتماعهم، ثابتون فيه ، هذا ما يفيده التعبير باسمى الفاعل (جالس ومجتمعون) وما يمكن إدراكه من دلالتهما ، ولما أتاهم عبد الرحمن ، جلس إليه ، ٠٠ رغبة قوية ، وحرص شديد على مدارسة العلم ، ومواصلة الدراسة ، واستمرار التلقى ٠٠

وما يحدث به عبد الله بن عمرو عن رسول الله - ﷺ - دق أدركه إدراكا تاما ، ووعاه وعيا كاملا ، ولذا لما سأله عبد الرحمن : أسمعت هذا من رسول الله - ﷺ - ؟ أجابه مؤكدا : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، وأشار بإحدى يديه إلى أذنيه ، وبالأخرى إلى قلبه ، فإسناد السمع إلى الأذن ، والوعى إلى القلب مجاز عقلى ، حيث أسند الفعل إلى آلته ، مبالغة فى توكيد الخبر ٠

وقد تناول النبى - ﷺ - فى الحديث عدة أمور ، إذ تحدث عن مهمة الأنبياء والرسل ، وأشار إلى ما سيحدث من فتن ، وأنه لا يأتى زمانا إلا الذى بعده شر منه ، وأشار إلى النجاة من هذه الفتن ، وذكر وجوب السمع والطاعة للإمام ، والوفاء ببيعته ، فتعالوا ننظر ونتأمل ما ذكره المصطفى - ﷺ - ونتعرف على ما به من أسرار ومزايا بلاغية ٠٠

استطاع عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - بتصوير دقيق ، أن يقفنا علي حال الصحابة - رضوان الله عليهم - عندما نزلوا ذلك

المنزل « فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ومنا من هو فى جشره »(١) ، وكاننا نشاهدهم - رضى الله عنهم - وقد شغل كل منهم بأمره ، هذا يصلح خباءه ، وذا ينتضل بالسهام تدربا ، وذاك فى جشره يرعى شئونه ، وينظر فيه ، فالتعبير بالمضارع (يصلح .. وينتضل) يصور لنا الحدث واقعا مشاهدا ، والتعبير بالحرف (فى) يشعر بمدى انشغال أولئك الذى انصرفوا إلى جشرهم ، فقد تمكن الجشر منهم تمكن الظرف من المظروف ..

وهذا التقسيم الذى قسمه عبد الله : (فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو فى جشره) يبرز لنا ما كان عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - فها هم أولاء مع رسول الله - ﷺ - فى سفر وقد نزلوا منزلا للراحة ، فشغلوا بشئونهم ، وما هى تلك الشئون التى شغلوا بها : إصلاح الأخبية ، والانتضال تدربا ، والنظر فى شئون دوابهم ، تلك حالهم فى وقت راحتهم ، لم يشغلوا بلهو أو عبث ، وإنما انشغلوا بالخير والعمل الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين ..

وبينما هم كذلك منشغلون بأمورهم فى ذلك المنزل الذى نزلوه ..

---

(١) الخباء بكسر الخاء : ما يعمل من وبر أو صوف ، وقد يكون من شعر ، قال تعالى : **(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين)** النحل : ٨٠ ، وجمع الخباء : أخبية ككساء وأكسية ، ويكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت، .. ومعنى (ينتضل) : يرمى بالسهام تدربا ... والجشر ، بفتح الجيم والشين : الدواب التى ترعى وتبيت فى مكانها ، ويطلق لفظ (جشر) على الذى يظل بمرعاه ولا يأوى إلى أهله ، فالجشر : قوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ، ويبيتون مكانهم لا يأوون إلى البيوت ، والمراد فى الحديث : ومنا من شغل بدوابه تلك ، يرعاها وينظر في شئونها ..

(إذ نادى منـادى رسـول الله - ﷺ - الصـلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله - ﷺ -) .

إضـافة المنـادى إلى رسول الله - ﷺ - فى قوله : (نادى منـادى رسول الله) تدل على تعظيم المضـاف ورفعـة شـأنه ، والتعبير بالفـاء فى قوله : (فاجتمعنـا) تشعـر بسرعة الإجابة وتلبية النداء ، فما أن سمعوا النداء حتى اجتمعوا إلى الرسول - ﷺ - كما يشعر التعبير بحرف الجـر (إلى) بمدى حـرصهم وترقبهم وتطلعهم إلى ما يريده - ﷺ - ولذا لم يقل : فاجتمعنا عنده مثلا ، وإنما قال : فاجتمعنا إليه ..

وقول المنـادى : (الصـلاة جامعة) خبر أريد به الإنشـاء ، إذ المعنى : اجتمعوا للصـلاة ، والغـرض من وضـع الخبر موضع الإنشـاء حمـل المخاطب على تحقيقـه وتحصيله ، حيث أبرزه المتكلم فى معرض الواقـع المحقق رغبة فى وقوعه ، وحرصا على تحصيله ..

ومن ذلك قوله - ﷺ - (لا يجتمـع دينـان فى جزيرة العـرب) فالمـراد : لا تجمعوا فى جزيرة العـرب بالنهى ، وقد جاء بصيغة الخبر حمـلا للمسلمين على تحقيق ذلك وتحصـيله ، والجهـاد فى سبيل رفع راية الإسـلام حتى لا تعـلوها راية ..

ومنه قوله تعـالى : « **الزانى لا ينكح إلا زانيـة أو مشـركة والزانية لا ينكحهـا إلا زان أو مشـرك وحـرم ذلك على المؤمنـين** »(٢) ، فقوله (لا ينكح .. لا ينكحها) خبر أريد به النهى ، وفى بعض القراءات بالجـزم على النهى ، وعلى قـراءة الرفـع يكون قد وضـع الخبر موضع الإنشـاء مبالغة فى الزجـر والردع ، حيث أبرز المنهى عنـه فى معرض الواقـع المحقق رغبة فى تحقيقه وحرصا على تحصيله ..

---

(٢) سـورة النـور : ٣ .

ومن ذلك أيضا صيغ الدعاء كقولنا : رضى الله عنه .. رحمه الله .. لا سمعت مكروها .. فإن المراد : اللهم ارض عنه وارحمه ولا تسمعه مكروها ، والتعبير بالخبر فيه إشعار بأن الدعاء قد حصل وتحقق ، وفي ذلك من التفاؤل ما لا يخفى ..

وبعد نداء المنادى : (الصلاة جامعة) من الطبيعى أن تؤدى الصلاة ، التى نودى لها ، مع النبى - ﷺ - وبعد أدائها يكون حديثه إليهم ، وكان المعنى : فاجتمعنا إلى رسول الله - ﷺ - فصلينا معه ، وبعد الصلاة حدثنا - ﷺ - فقال ...

وقد سكت الراوى عن ذلك المحذوف ، وطواه لظهوره وجلائه ، ومثل هذا الحذف يحسن فى الكلام ويلطف ، لأن الجمل التى لا يحتاج إليها الكلام لظهورها ظهورا بينا ، وسهولة إدراكها منه ، يحسن طيها حتى لا يترهل بها الكلام ، وهم يذكرون من أغراض الحذف : الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ..

فقال : (**إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم** ..) .

بدأ - ﷺ - حديثه بتنبيه الصحابة ، وإيقاظ مشاعرهم ، حيث ذكر مهمة الأنبياء ، والغرض الذى أرسلوا من أجله ، فإنهم لم يرسلوا إلا للتبليغ ودلالة أمتهم على خير ما يعلمون لهم وإنذارهم شر ما يعلمونه لهم ، ومراده - ﷺ - أن ينتبه الصحابة لكى يدركوا حقيقة ما سيخبرهم به ، فعندما يتذكرون أن الرسول لم يرسل إلا لدلالتهم على الخير ، وإنذارهم الشر ، ينتبهون لما يقوله ، ويصغون إليه ، لكى يقفوا على حقيقته ويدركوه ..

وقد قصر - ﷺ - مهمة الرسل والغرض الذي أرسلوا من أجله

على وجـوب التبليـغ والتعليم والإنذار ، قصـر موصوف على صـفة ، قصـرا حقيقيا ، فإرســال الرسل مقصور على التبليغ منفى عما عـداه مما يتنافى مع التبليغ ..

وفى إيثار التعبير بالنفى والاستثناء للدلالة على القصر دون (إنما) تنزيـل للأمـــر المعـلوم الواضـح الذى لا ينكـره الصحـابة ، منـزلة المجهول الذى يدفـع وينكر ، وذلك تنشيطا للهمم ، وحثـا للعقول على الإقبـال والامتثال ، والإصغاء لمـا يلقيـه - ﷺ - إليهم ..

وبتأمل أسـلوب القصـر وبناء جملته فى الحديث الشـريف ، نجده قد بنى بناء يجلى مهمـة الرسل - عليهم السـلام - ويؤكد هـذه المهمـة التى وجب عليهم القيـام بهـا ، فقد عبر بإن لتوكيد الخبر ، وقــال : (لم يكن نبى) ، فعبـر مضارع (كان) المنفى بلم ، وهو إما تام ، والمعنى : لم يوجـد نبى قبلى إلا لهـذه المهمـة ، وفـرق بين قولنـا : لم يرسـل نبى إلا للتبليغ والإنذار ، وما عليـه نظم الحديث (لم يكن نبى قبـلى) ، فنظـم الحـديث أفـاد أن الرسـل لم يوجـدوا أصـلا إلا لتلك المهمـة ..

وإما ناقصـا قد حذف خبره ، والمعنى : لم يكن نبى قبلى متصفا بصفة من الصفات إلا بصفة التبليـغ والإنذار ، فقد نفى عنهم كل وصـف ما عدا البلاغ الذى وجدوا من أجلـه ، وخلقوا له ..

هـذا فى جانب المقصـور ، فإذا انتقلنـا إلى بنـاء المقصور عليـه وجدنا قوله : (حقـا) مصدرا مؤكدا لنفسـه ، والمعنى : إلا حق عليـه حقـا أن يدل أمتـه ، (فحقـا) مصدر مؤكد لفعـل محذوف من لفظه ، ووجدنا أيضـا : التعبير بالمصـدر المـؤول (أن يدل) وعطف قـوله : (وينذرهم) عليـه ، وذلك ليتأتي التعبير بالفعـل المضـارع الذي يدلي

على التجـدد والاستمرار ، ولو عبر بالمصـدر الصريح ، فقيل : إلا كان حقا عليـه دلالة أمتـه على الخير وإنذارهم الشـر ، لضـاع هذا المعنى الذى يؤديه المضـارع ..

ونجد كذلك التعبير بالاسم الموصول (ما) فى موضعيه : (خيـر ما يعلمـه لهم ... شـر ما يعلمـه ..) يدل على التعظيم والتهـويل والإبهـام ، فالذى يعلمـه الأنبيـاء مما علمهـم الله إياه ، وأمـرهم أن يدلوا أممهم عليـه ، خير عظيم هـائل ، لا يدرك كنهـه ، ولا يحيط به إلا من انتبـه وأمعـن النظـر وألقى السـمع وهو شهيد ، وكذلك الشـر الذ ىأمـروا أن ينذروهم إياه ..

وبهـذا يتضح لنـا كيف بولغ فى تجليـة مهمـة الأنبيـاء وإبرازها والكشف عنهـا ، وقد بدأ المصطفى - ﷺ - حـديثه ببيـان ذلك ليوقظ الصحابة ، ويثـير انتبـاههم ، فيصغوا إلى ما سيلقيه إليهم من أخبـار - كما ذكـرنا - ويعـوه وعيـا تاما ..

(وإن أمتكم هـذه جعـل عافيتهـا فى أولهـا ، وسيصيب آخرها بلاء وأمـور تنكرونها ، وتجىء فتن يرقق بعضها بعضـا ، وتجىء الفتنة فيقـول المؤمن : هـذه مهلكتى ، ثم تنكشف ، وتجىء الفتنـة فيقـول المؤمن : هـذه هـذه) .

يخبرنا - ﷺ - بما سيصيب آخـر هذه الأمـة من بلاء وفتن وأمور منـكرة ، وأن أولهـا قد عافاه الله من تلك الفتن ، وسلمـه من البـلاء والأمـور المنكرة ..

واختلف العلمـاء فى تحديد أول الآخـر لهذه الأمـة فقال بعضهم : المـراد بأول الأمـة : زمان النبى - ﷺ - والخلفـاء الثلاثة إلى مقتـل عثمان - رضي الله عنـه - فهذه كانت أزمنة اتفـاق هذه الأمة ، واستقامة

أمـرها ، وعافية دينها ، فلمـا قتـل عثمان - رضى الله عنـه - هاجت الفتن ، ولم تزل ولا تزال إلى يوم القيـامة ، وعلى هـذا فأول الآخـر ما بعد مقتـل عثمان ، وهو آخـر بالنسبة لمـا قبله من زمن العـافية ، واستدلوا على ذلك بقوله - ﷺ - (وأمـور تنكرونها) ، فإن الخطاب فيـه للصحابة ، وهذا يدل على أن منهم من يدرك أول ما جعله - ﷺ - آخـرا ، وقد كان ذلك ، حيث شهـد كثير منهم تلك الفتن التى هاجت بعد مقتـل عثمان رضى الله عنـه ..

وقيـل : المـراد بالأول : زمان الصحـابة والتابعـين ، وبالآخـر ما بعدهما ، ودليـل ذلك قوله - ﷺ - « خير القـرون قـرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. »(٣) ..

ويمكن رد ما استدل به أصحاب الرأى الأول بأن الخطاب فى قوله - ﷺ - (وأمـور تنكرونها) عـام لجميـع المسلمـين ، وليس خاصـا بالصحابة رضوان الله عليهم .

ولغـرابة الخبـر الذى يخبر به - ﷺ - جـاء تأكيده بإن واسـم الإشـارة فى قوله : (إن أمتكم هـذه) ، وبالسين فى قوله : (وسيصيب آخـرها بلاء) ، وذلك لأن الخبر عندما يكون غريبا تقتضى غرابته أن أن يؤكد ليهيىء التوكيد النفس لقبوله ، ويبدد ما به من غرابة ..

وقد حذف الفاعل وبنى الفعـل للمفعول فى قوله - ﷺ - : (جعل عافيتها فى أولهـا) ، وذلك للعـلم بالفاعل ووضوحه ، والمعنى : جعـل الله عافيتها فى أولهـا ، والعافية : السـلامة من فتن الدين ، ففى حديث أبى بكر - رضى الله عنـه - (سـلوا الله العفو والعـافية) أما العفو فهو

---

(٣) انظر شرح ابن علان : ١٣٢/٣ .

محو الذنوب والسيئات ، وأما العافية فهى أن يعافى الله من السقم والبلايا والعلل(٤) ..

وتنكير البلاء والأمور والفتن فى قوله - ﷺ - (وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجىء فتن) للدلالة على التعظيم والتهويل ، ولذا وصفت الأمور بقوله : (تنكرونها) ، ووصفت الفتن بقوله : (يرقق بعضها بعضا) ، وجاء وصفها فى حديث آخر بأنها كقطع الليل المظلم ، وذلك فى قوله - ﷺ - : « بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا »(٥) .

ومعنى : (يرقق بعضها بعضا) : يصير بعضها بعضا رقيقا خفيفا لعظم ما بعده ، فالثانى يرقق الأول ، أى : أن الفتن تبدأ خفيفة ضئيلة ثم تعظم ، وكلما جاءت فتنة ضلت أمامها ما قبلها لعظم الثانية ، ويؤيد ذلك ما رواه البخارى أن الناس أتوا أنس بن مالك - رضى الله عنه - فشكوا إليه ما يلقونه من الحجاج ، فقال لهم : (اصبروا فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم - ﷺ -) .

وقيل معناه : يشبه بعضها بعضا ، وقيل : يسوق بعضها بعضا بتحسينها وتسويلها ، وقيل : يدور بعضها فى بعض ويذهب ويجىء به(٦) .

وروى (يدفق بعضها بعضا) بفتح الياء وكسر الفاء أى : يدفع ويصب ، والمعنى على تشبيه الفتن ، بموج البحر يدفع بعضه بعضا ،

---

(٤) انظر لسان العرب مادة : عفا .
(٥) رواه مسلم .
(٦) انظر دليل الفالحين ١٣٥/٣ .

وتشبيه المؤمن وسط هـذه الفتن بالعـائم الذى تتقاذفه الأمـواج ، فإذا أقبلت عليـه موجـة قال : هـذه مهلكتى ، ثم تروح عنـه تلك الموجـة فتأتيه أخـرى فيقول : هـذه هـذه ، أى : هذه التى ستغـرق لا محالة ، فضعيف الإيمـان تأخذه هـذه الأمواج فيهلك ، وقوى الإيمان يعض على سنة رسول الله ـ ﷺ ـ بالنواجذ حتى ينجو من الغـرق ، هذا ما أمرنا ـ ﷺ ـ أن نواجـه به الفتن حين قال : « أوصيكم بتقـوى الله والسـمع والطـاعة وإن تأمـر عليـكم عبد حبشى ، وإنه من يعش منكم فسـيرى اختـلافا كثيرا ، فعليـكم بسنتى وسنة الخلفـاء الراشدين المهـديين ، عضوا عليهـا بالنواجـذ ، وإياكم ومحـدثات الأمـور ، فإن كل بدعـة ضـلالة »(٧) ٠

وجمـلة (يرقق بعضها بعضـا) إما صفة للنكرة قبلهـا (فتن) ـ كما ذكـرنا ـ وإما مستأنفـة استئنافا بيـانيا ، وكأن سـائلا سـأل : ما صفة هذه الفتن العظيمة المهلكة ؟ فأجب : يرقق بعضها بعضـا ٠٠

وإسناد الإهـلاك إلى الفتنـة فى قوله ـ ﷺ ـ : (هذه مهلكتى) إسناد مجـازى ، حيث أسند اسم الفاعل إلى سببه ، وذلك لتصـوير شدة الفتنـة ، والمبالغة فى أثرها على المؤمن ٠

وإنما خص النبى ـ ﷺ ـ المؤمن بالذكـر ، وأسند إليـه القـول فى قـوله : (فيقول المؤمن هـذه مهلكتى) لأن المؤمن هو الذى يشعـر بعظم هـذه الفتن ،ويدرك خطورتها ، وأما غير المؤمن فينغمس فى هذه الفتن والأمـور المنكرة ، ويعـلوه موجها ، فيأخذه إلى قـاع الهـلاك والعـــذاب ٠

وأل فى قوله : (وتجىء الفتنـة) للجنس ، فالمحـلى بهـا نكرة

---

(٧) رواه أبو داود والترمذى ٠

من حيث المعنى ، ولذا فإن الفتنــة الثانيــة غير الأولى ، لأن النكرة إذا كررت كان الثــانى غير الأول ، والمــراد : وتجىء الفتنة العظيمة فيفزع المؤمن ، ويقــول هــذه هى الفتنــة المهلــكة التى ستهلكنى ، ثم تنكشف بأمــر الله عن المؤمنين ، وتجىء فتنــة أخــرى أعظم وأفظع من الأولى ، فيفــزع المؤمن ويقول : هذه هذه ، وتتوالى الفتن ويكثر البلاء ..

فقوله : (هــذه هــذه) مسند ومسند إليــه ، فهما وإن اتحدا لفظا إلا أنهما تغايرا معنى ، والمراد : هذه الفتنة هى الفتنة العظمى التى فيها الهلاك ، والتعبير باسم الإشــارة وتكراره لفظا لتعظيم الأمــر وتفخيمه ، ومثــله فى غير اسم الإشــارة أن يقــال فى مقــام المدح والثنــاء : ذاك هو البطل وبطشــه بطشــه ، وهذا هو المحدث وعلمــه علمــه ، وذلك هو الناصح ورأيه رأيه ..

(فمن أحب أن يُزَحــزح عن النــار ، ويُدْخَــل الجنــة ، فلتــأته منيتــه وهو يؤمن بالله واليوم الآخــر ، وليأت إلى النــاس الذى يحب أن يؤتى إليــه ..) .

ثم بين - ﷺ - طــرق النجــاة من هذه الفتن التى ستصيب آخــر هــذه الأمــة ، وهو أن يقبض المؤمن على دينــه ، ويتمسـك بالكتاب والسنة ويعض عليهما بالنواجذ ، ولا يظــلم أحدا كما يحب ألا يظلمــه أحــد ، فليــأت إلى النــاس ما يحب أن يؤتى إليــه ، وليمنــــع عنهم ما يحب أن يمنــع عنــه ..

وقد حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فى قوله : (**يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة**) ، وذلك للعلم بالفاعل وهو المولى عز وجل ، **والمعنى** : فمن أحــب أن يزحزحه الله عن النــار ويدخله الجنــة .

والتعبير بالزحزحة يشعر بالاقتراب من النــار ، وصيرورته على شفا حفــرة منها ، ولم يعــد أمــامه سوى أن يزحزح عنها فينحى ويبعد ،

ويوجه إلى طريق الجنة ، أو يترك فيسقط فى النار ، وفى بعض الروايات : (فمن أحب أن يخرج نفسه من النار ويدخل الجنة) فأطلق الإخراج وأراد المباعدة على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته التلازم ، لأن الخروج يستلزم المباعدة ، والتعبير بالإخراج عن المباعدة يشعر بشدة الاقتراب من النار ، حتى كأنه قد دخلها بالفعل ... والمراد بالأمر فى قوله : (**فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر**) الدوام على الإيمان والحث على الاتصاف به والاستمرار عليه طوال الحياة ، كما يقال : مت وأنت كريم ، ولا يراد بذلك حقيقة الأمر ، وإنما المراد الحث على الاتصاف بتلك الصفة والدوام عليها طوال حياته ، ومن ذلك قوله تعالى : « **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** »(٨) ، فليس المراد حقيقة النهى ، وإنما أريد (البحث) على التمسك بالإسلام والاستمرار عليه طوال حياتهم ، فإذا جاءهم الموت ، وهو لا يأتى إلا بغتة ، ماتوا وهم مسلمون ..

وقيد الإيمان (بالله واليوم الآخر) لمزيد الاهتمام والعناية ، ولأن الإيمان بهما يستلزم الإيمان بغيرهما ، فهما الأصل والأساس ، ومن أتى بهما كان آتيا بغيرهما من نحو الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر ..

وقوله - ﷺ - : (وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه) ذكر للخاص بعد العام ، اعتناء بشأن الخاص ، لأن التمسك بالإيمان طوال الحياة يندرج تحته إتيان الناس ما يحب أن يؤتى إليه ، وهذا من جوامع كلمه - ﷺ - وبدائع حكمه ، ومثله قوله - ﷺ - : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٩) .

---

(٨) البقرة : ١٣٢ .
(٩) رواه البخاري ومسلم .

ووراء حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول فى قوله - ﷺ - : (الذى يحب أن يؤتى إليه) معنى دقيق يحتاج إلى وعى لإدراكه وهو الدلالة على أن المؤمن يجب عليه أن يحب للناس أن يأتى إليهم كل ما يحب أن يأتى إليه من خير ، سواء أكان الخير آتيا لهم منه أم من غيره ، وأن يكره أن يأتى إليهم الشر الذى يكرهه لنفسه ، سواء أكان الشر منه أم من غيره ، فليس المراد أن يقف حبه أو كرهه للذى يأتى الناس عند حد المماثلة لما يأتيه منهم ، بل المراد أن يتجاوز تلك المماثلة فيشمل كل خير يحب أن يأتى له من أى جهة كانت ، وكل شر يحب أن يمنع عنه من أى جهة كانت ، وهذا المعنى يجليه الحديث الآخر الذى ذكرناه : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ، ولو ذكر الفاعل فقيل : وليأت إلى الناس الذى يحب أن يأتوا إليه ، لضاع هذا المعنى ، إذ يقف عندئذ حبه وكرهه لهم عند حد المماثلة ، لا يتجاوزها إلى ما ذكرناه .

(ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر) .

يتناول هذا الجزء من الحديث الشريف بيان ما يجب على المسلمين تجاه بيعة الإمام ، من وفاء بها ، وطاعة للإمام فى غير معصية الله تعالى ، والدفاع عنه والقتال دونه إن جاء آخر ينازعه الإمامة ..

وتنكير الإمام فى قوله - ﷺ - : (ومن بايع إماما ..) يشعر بأن طاعة الإمام واجبة ، أيا كان وضع ذلك الإمام ، ومهما كانت منزلته وصفته ، ولذا رأيناه - ﷺ - فى مواضع كثيرة من أحاديثه يشير إلى ذلك ، ويوجب السمع والطاعة للإمام ولو كان عبدا حبشيا ، يقول - ﷺ - : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم

عبد حبشى »(١٠) ... ويقول - ﷺ - « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة »(١١) .

وقوله - ﷺ - : (فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه) ، بيان للبيعة ، وكانت عادة العرب إذا وجب البيع أن يضرب أحدهما على يد صاحبه ، فالصفقة : ضرب اليد على اليد ، ثم استعملت فى العقد ، فقيل : بارك الله فى صفقة يمينك ..

فالتعبير (أعطاه صفقة يده) كناية عن إتمام البيعة ، والتعبير بالثمرة وإضافتها إلى القلب ، فى قوله : (ثمرة قلبه) يدل على وجوب الإخلاص فى البيعة ، وترك الغش والخديعة ، وإطلاق الثمرة على العمل الخالص ، النابع من القلب ، استعارة تصريحية ، وهذا ينبىء بأن الإخلاص ينفع صاحبه ويفيده ، فهو ثمرة تجنى وتقطف ، كما ينتفع المرء بثمار الأشجار والنخيل والأعناب ..

وفى قوله - ﷺ - : (فليطعه إن استطاع) حذف جواب الشرط ودل عليه الأمر قبله ، والتقدير : فإن استطاع أن يطيعه فليطعه ، وهذا الحذف يشعر بأن طاعة الإمام من الأمور التى تستثقلها النفس ، وتنزع إلى مخالفتها ، كما يدل على ذلك التعبير بالأداة (إن) دون (إذا) فإن الشرط وهو (استطاع) ينبغى أن يكون واقعا ومحققا ، ومعبرا عنه بإذا ، ولكن نظرا لاستثقال النفس تلك الطاعة ، ونزوعها إلى المخالفة عبر بالأداة (إن) ..

ولذا أوجب - ﷺ - السمع والطاعة للإمام فيما نحبه وفيما

---

(١٠) رواه أبو داود والترمذى .

(١١) رواه البخارى : ... والزبيبة بفتح الزاى وكسر الباء : قرحة تخرج فى اليد كالعرفة ، ونكتة سوداء فوق عين الحية ، والمراد : وصفه بالسواد وصغر الرأس تحقيرا له .

نكرهـه ؛ طالمـا أنه لا يأمـر بمعصية ، يقول ـ ﷺ ـ : « على المـرء المسلم السمع والطـاعة فيما أحب وكـره ، إلا أن يؤمـر بمعصية ، فإذا أمـر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »(١٢) ٠

وأمـرنا بالصـبر على ما نكره من الأمير ، ولا نخـرج عليه وذلك حيث يقول ـ ﷺ ـ : « من كره من أميره شيئا فليصبر ، فإنه من خـرج من السلطان شبرا مات ميتـة جاهلية »(١٣) ٠

أما التعبير بالأداة (إن) فى قـوله ـ ﷺ ـ : (فإن جـاء آخـر ينازعه) فللدلالة على أن منازعة الإمام الذى بايعـه الناس ، وأعطـوه صفقة أيديهم ، وثمـرة قلوبهم ، ينبغى أن تكون من الأمـور المستبعدة ، وألا يقبـل عليها أحـد ، أو يفكر فيهـا ٠٠

والأمـر بضـرب العنق فى قوله ـ ﷺ ـ (فإن جاء آخـر ينازعه فاضـربوا عنـق الآخـر ٠٠) يدل على المبالغة فى الوفاء ببيعـة الإمام ، والدفاع عنـه ، ومنـع الخـروج عليـه ، فهذا واجب على المسلمين ، وينبغى عليهم أن يبذلوا أقصى جهودهم فى الدفاع عن الإمام ، ولذا لم يقـل ـ ﷺ ـ : فإن جـاء آخـــر ينـازعه فامنعـوه ، أو فقاومـوه ، وإنما قال : (فاضربوا عنـق الآخـر ٠٠) ٠

ويشعر حـرف الفـاء فى قوله : (فاضربوا عنـق الآخر) بوجوب المبـادرة وسرعة التصـدى للخارجين على الإمام ، وعدم التـوانى فى مقاومتهم ، ومنع خروجهم ٠٠

---

(١٢) رواه البخارى ومسلم ٠
(١٣) رواه البخارى ومسلم ٠

وقد وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله : (فاضربوا عنق الآخر) إذ مقتضى الظاهر أن يقال : فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه ، وذلك منعا لتوهم غير المراد ، فإن التعبير بالضمير قد يوهم أن المأمور بضرب عنقه عند مجىء المنازع هو الإمام ، لا من جاء ينازعه ، فمنعا لهذا التوهم وجب إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بوضع الاسم الظاهر (الآخر) موضع الضمير .. والله تعالى اعلى وأعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

القسم الثالث

نصوص من الشعر

١ ـ من قصيدة (ابى ذؤيب الهذلى)

« أمن المنون وريبها تتوجع »

٢ ـ من قصيدة (عبدة بن الطبيب)

« أبنى إن قد كبرت ورابنى بصرى .. »

٣ ـ من قصيدة (الشنفرى الأزدى)

« ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت »

(١)

من قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء بنيه :

أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة : ما لجسمك شاحبا
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا
إلا اقض عليك ذاك المضجع
فاجبتها : أما لجسمى أنه
أودى بنى من البلاد فودعوا
أودى بنى واعقبونى غصة
بعد الرقاد وعبرة لا تقلع
سبقوا هوى واعنقوا لهواهم
فتخرموا ولكل جنب مصرع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب
وإخال أنى لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
فإذا المنية اقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع
فالعين بعدهم كان حداقها
سملت بشوك فهى عور تدمع
حتى كأنى للحوادث مروة
بصفا المشرق كل يوم تقرع

وتجـــادى للشـــامتين أريهـم
أنى لـريب الدهــــر لا أتضعضـــع
والنفس راغبـــة إذا رغبتهـــا
وإذا تـــرد إلى قليـــل تقنـــع
ولئن بهم فجــع الزمـان وريبـــه
إنى باهـــل مـــودتى لمفجـــع
كم من جميـــع الشمل ملتئم القوى
كانـوا بعيـش قبلنـــا فتصـــدعوا
والدهـــر لا يبقى على حـــدثانه
جـون السـراة لـه جـدائد أربع
صخب الشـوارب لا يـزال كأنـه
عبـد لآل أبى ربيعـــة مسبـــع
اكـل الجميـم وطـــاوعته سمحـج
مثـل القنـــاة وازعلتـه الأمـــرع
بقـــرار قيعـــان ســـقاها وابـل
واه فأثجـــم برهـــــة لا يقلـــع
فلبثـن حينـــا يعتلجـن بروضـــه
فيجـد حينـــا فى العـــلاج ويشمع
حتى إذا جـــزرت ميـــاه رزونـه
وبأى حـــين مـــلاوه تنقطـــــع
ذكـر الـورود بهـا وشـاقى أمـــره
شـــؤم وأقبـــل حينـــه يتتبـــع

★ ★ ★

هــذه الأبيات من قصيدة طويلة لأبى ذؤيب الهذلى ، وهو شــاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإســلام ، فأسلم وحسن إسـلامه ، وقد مات فى خــلافة عثمان بن عفــان ـ رضى الله عنــه ـ وهو راجــع من غــزو الروم ، ودفن بالطــريق(١) ..

وهذه القصيدة قالهــا فى رثاء بنيــه الخمســة الذين هلكوا جميعــا فى عام واحــد ، حيث أصــابهم الطاعون ، وكانوا رجــالا ، ولهم بأس ونجــدة ، هاجروا إلى مصــر ، فاصيبوا بالطاعون وهلكوا جميعــا فى عام واحد ، فحزن عليهم ، وبكاهم بهذه القصيدة الرائعة(٢) ..

وقد صــور فى القصيدة آلامــه وأحــزانه ، واستطاع من خلال وصفه للحمار الوحشى والثــور ، والبطــل الفارس الكامل الســلاح ، وتصويره لهــلاك كل بعد أن كان يحيــا حيــاة سعيدة ، استطاع أن يظهــر لنا كيف يتغير الحــال ، وكيف ينقلب الأمــر من ضد إلى ضد فى ســرعة خاطفة ، وفجأة بلا مقدمات ، وكأنه يتخذ من هــذه الأنماط الثلاثة عــزاء لنفسه ، وتسلية لهــا ، وحثــا على الصبر والمصــابرة ، فتلك طبيعــة الحيــاة الدنيــا ، وطبيعــة الخــلائق ، لا يبقى أحد على حدثان الدهــر ، وفى تكراره لهــذا المقطــع : (والدهــر لا يبقى على حــدثانة) عنــد بداية حديثه عن كل من الحمــار والثــور والبطــل ، وإيثــار التعبير بكلمــة (حدثان) وما تشعر به من دوران وتقلب واضطراب ، وعدم استقرار ، فى هــذا ما يحث على الصبر ، ويبدد الألم والحــزن ، وتسلية وعــزاء للنفس ، وكان أبا ذؤيب يلقى عليــه بهمومه وأحــزانه ، ويجــد فيــه متنفســا لهــا(٣) .

بدأ أبو ذؤيب قصيدته بهذا الاستفهام الإنكارى : أمن المنــون وريبها

---

(١) انظر المفضليات للضبى : ٤١٩ .
(٢) انظر شرح أشعار الهذليين للسكرى ج ١ ص ٣ .
(٣) ارجع إلى القصيدة كاملة فى المفضليات : ٤٢١ .

تتوجع ؟ وقد جـرد من نفسـه إنسـانا على طـريقتهم فى بدء قصائدهم أحيـانا ، إذ يجـرد الشـاعر من نفسـه شخصـا أو شخصين ويخاطبهما موجها إليهما ما يريد من معان ، كما فى معلقة امرىء القيس :

قفـا نبـك من ذكـرى حبيب ومنزل
بسـقط اللـوى بين الدخـول فحومل

وكما فى بائيـة ذى الرمـة :

ما بال عينـك منهـا المـاء ينسـكب
كانه من كـلى مفـــرية ســـرب

وكما فى قول الأعشى :

ودع هـــريرة إن الـركب مرتحـــل
وهـل تطيـق وداعـا أيهـا الرجـل

وقـول المتنبى :

لا خيـــل عنـدك تهـديها ولا مـال
فليسعد النطـــق إن لم يسعـد الحـال(٤)

جـرد أبو ذؤيب من نفسـه شخصا وسـأله منكرا توجعه من ريب المنيـة وفجائعها : أمن المنون وريبها تتوجـع ؟ لا ينبغى أن يكون ذلك التوجع ، لأن الدهـر لا يعتب أحدا جـزع من مصـائبه ، فيراجعه ويرد إليـه ما يحب ، ويذهب عنـه ما أتى به من فجـائع ومصـائب ، ولذا لا ينبغى التوجع من ريب المنون ...

---

(٤) التجـريد : هو أن ينتزع من أمـر ذى صفة أمـر آخـر مثله فى تلك الصفة مبالغـة فى كمالها فيـه ، كقولهم : لى من فـلان صـديق حميم ، لئن لقيت فـلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سـألته لتسـألن به البحـر ، وهو فن من فنون البديع ، وله صـور عديدة إحداها مخاطبة الإنسان نفسه ، كما رأينا فى الأبيات المذكورة ..
وارجع إلى كتابنا : علم البديع جـ ٢ ص ٧٩ لتقف علي صـور التجريد ومزاياها البلاغية .

وقد تخير أبو ذؤيب من الألفاظ ما يدل على حزنه الشديد لموت بنيه ، وعلى تغير حاله من بعدهم ، تأمل الألفاظ : (ابتذلت ... أقض عليك ذاك المضجع .. غصة .. عبرة لا تقلع .. تخرموا .. غبرت بعدهم ..) ، فهذه الألفاظ تبنيء بمدى حزنه ، وتغير حاله بعد هلاك أبنائه ..

وقد تساءل متعجبا وأجرى سؤال التعجب على لسان أميمة ، وأطال فيه ليصور حاله ، ويكشف عما ألم به : (ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ..؟ أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذلك المضجع ..؟ ثم أرخى لنفسه العنان وأفاض فى الإجابة مبرزا أسباب آلامه ، وكاشفا عن كوامن أحزانه ...

وقد امتلأت الأبيات بالصور البيانية ، والتراكيب والأبنية، التى تكشف عن حالة أبى ذؤيب ، وتجلى همومه وآلامه ، فتنكير (غصة ، وعبرة) فى قوله :

أودى بني وأعقبوني غصة
بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

يدل على التعظيم والتهويل ، ولذا وصف العبرة بقوله (لا تقلع) فهى تستمر به ولا تفارقه لشدتها وعظمها ، ومعنى الغصة : ما ينشب فى الحلق مما لا يساغ ، ويتوقف فيه فلا يدخل ولا يخرج ، قال تعالى : « **إن لدينا أنكالا وجحيما • وطعاما ذا غصة وعذابا أليما** »(٥) .

وإسناد (ناصب) إلى الضمير العائد إلى العيش فى قوله :

فغبرت بعدهم بعيش ناصب
وإخال أني لاحق مستتبع

---

(٥) المزمل : ١٢ ، ١٣ .

إسناد مجــازى ، حيث أسند اسم الفاعل إلى مفعــوله ، كما فى قوله تعــالى : « **فأما من ثقلت موازينـه • فهو فى عيشة راضية** »(٦) ، فالعيش لا يرضى ولا ينصب ، وإنما صاحبه هو الذى يرضى به ، أو ينصب فيــه ، أى : يشقى ويشــتد عليــه أمره فقــد أفاد التجوز كمال المبــالغة فى رضا المؤمنين الذين ثقلت موازينهم بنعيم الجنات ، كما أفاد فى البيت كمال المبالغة فى شقاء أبى ذؤيب ، وشدة نصبه فى عيشه بعد هلاك بنيه، ولذا آثرالتعبير عن لبثه وبقائه بعدهم بقوله : (غبرت) أى: بقيت ومكثت، فلفظ (غبرت) ينبىء بالأسى والحزن والعبوس ، قال تعالى : « **ووجوه يومئذ عليها غبــرة • ترهقها قتــرة • أولئك هم الكفرة الفجرة ••**»(٧)

وكان أبو ذؤيب حريصــا على الدفاع عن أبنــائه ، ومنــع الأذى عنهم ، ولكن المنية تخرمتهم ، وأنى للمنية أن تدفع :

ولقــد حــــرصت بأن أدافـــع عنهم
فــإذا المنيـــة اقبلــت لا تدفـــع

إنها سبع فاتك ، إذا أنشب أظفــاره قضى على فريسته ، ولا شىء ينفــع فى دفعــه ، وإنقــاذ فريسته من بين براثنه ، وقد أبدع فى تصوير هــذا المعنى حين قال :

وإذا المنيـــة انشبت أظفــــارها
ألفيـــت كـل تميمــــة لا تنفـــع

ولا يخـلو كتــاب من كتب البــلاغة من الاستشهــاد بهــذا البيت للاستعــارة المكنيــة ، حيث شبهت المنيــة بالسبــع الفــاتك ، ثم حذف المشبه به ورمــز له بشىء من لوازمه وهو الأظفــار ، وإضــافة الأظفار إلى المنيــة استعــارة تخييلية ، وهى قرينة الاستعارة المكنية ••

---

(٦) القــارعة : ٦، ٧ •
(٧) عبس : ٤٠ ـ ٤٢ •

صور أبو ذؤيب المنية التى تخطفت أبناءه فى صورة مخيفة لا يتأتى دفعها ، ولا ينفع معها تميمة ، فقد جعلها سبعا مخيفا ، وجعل لها أظفارا تنشبها فى فريستها ، فلا الفريسة تستطيع المقاومة ، ولا أحد يستطيع أن ينجيها ، ولذا كان هلاكهم كأنه هوى لهم قد اعتنقوه ، وتسابقوا إليه ، وخالفوا ماكان يهواه أبوهم ، وهذا معنى قوله :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم

فتخرموا ولكل جنب مصرع(٨)

جعل هلاكهم هوى هووه ، فتسابقوا إليه ، وهذا يشعر بسرعة هلاكهم ، وشدة اختطافهم ، وهم لم يهووا الموت حقيقة ، وإنما هذا تمثيل لسرعة اختطافهم ، ففى البيت استعارة تمثيلية ، حيث مثل تخرم المنية إياهم وسرعة اختطاف الموت لهم بحال من تنافسوا فى شىء هووه واعتنقوه ، فسبقوا إليه ، تاركين ما عداه .

ومما يصور سرعة الأخذ بناء الفعل للمفعول فى قوله (فتخرموا) وكأن قوة خارقة قد اختطفتهم فأودت بهم ، ونحوه قول الله عز وجل : « **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين** »(٩) .

فحذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول فى قوله : (فغلبوا ... وألقى) يصور سرعة الغلبة والإلقاء ، وكأن يد القدرة قد

---

(٨) هوى بفتح الواو وتشديد الياء : اسم مقصور مضاف إلى ياء المتكلم ، وهذه لغة هذيل ، يقولون فى نحو : هواى وعصاى وتقاى : هوى وعصى وتقى .

(٩) الأعراف : ١١٩ ، ١٢٠ .

القتهم سجدا ، وحققت الغلبة لموسى عليهم فى سرعة خاطفة ، ووراء حذف الفاعل فى قوله (فغلبوا) سر آخر وهو الا يتوهم أن لموسى - عليه السلام - دخلا فى غلبتهم ، لو قيل مثلا : فغلبهم موسى(١٠) .

ثم وصف حالته بعد فراقهم ، وملازمة البكاء له ، وتتابع الحوادث والشدائد عليه ، فقال :

فالعين بعدهم كأن حداقها
سملت بشوك فهى عور تدمع
حتى كأنى للحوادث مروة
بصفا المشرق كل يوم تقرع

يصور كثرة بكائه وتتابعه ، فيصف عينيه والدموع تتوالى منهما دون انقطاع ، كأن حدقتيهما قد فقئتا بشوك فأصابهما العور ، فأخذ الماء ينسكب منهما دائما ، وقد بالغ فى وصف العينين ، حيث جعل السمل (الفقء) للحدقتين وما حولهما ، فقال : (كأن حداقها) .

كما قالوا : امرأة حسنة اللبات ، وإنما لها لبة واحدة ، ورجل ذو مناكب ، وهما منكبان ، وجمل غليظ المشافر وهما مشفران ، وقد أرادوا بالجمع المبالغة فى وصف اللبة والمنكبين والمشفرين ، والدلالة على حسن اللبة وجمالها ، وعلى عظم المنكبين والمشفرين وضخامتهما(١١) ..

---

(١٠) ارجع إلى كتابنا علم المعانى ج ١ ص١٠٣ .

(١١) اللبة هى وسط الصدر والمنحر ، وعندما بالغوا فى حسن اللبة وجمالها فقالوا : (إنها لحسنة اللبات) كأنهم جعلوا كل جزء منهما لبة ، ثم جمعوا على هذا .. انظر لسان العرب مادة (لبب) .

ولما بالغ فى وصف إصابة العينين ، جعل الدمع ينسكب منهما دون انقطاع ، ودل على ذلك بالتعبير بالفعل المضارع الذى يفيد التجدد الاستمرارى (فهى عور تدمع) ووراء كثرة البكاء وتتابعه تمكن الآلام والأحزان ..

ثم يصور فى البيت الثانى تتابع الحوادث وتوالى الشدائد عليه ، فيشبه نفسه بالمروة التى تقرع كل يوم بمرور الناس عليها ، وقد آثر التعبير بالمشرق وهو المصلى ، لكثرة مرور الناس به(١٣) .

والتعبير بالقرع فى قوله : (كل يوم تقرع) يصور شدة المصائب وشدة وقعها عليه ، كما يدل المضارع على تجددها واستمرارها ، وهم يقولون : (قرعت مروة فلان) إذا أصابته مصيبة تشق عليه ..

ثم ذكر أن هذه الآلام وتلك الأحزان لا تظهر عليه ، لأنه يتجلد ويتصبر حتى لا يشمت الشامتون :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر أنماط كانت من القوة بمكان ، تحيا حياة سعيدة ، وفجأة يتعكر صفوها ، لأن الدهر لا يبقى على حدثانه شىء ، بل تمتد الحوادث والشدائد والمصائب لتهلك كل قوى ، وتقضى على كل شجاع .

فذاك حمار جون السراة ، أى : أسود الظهر ، قوى

---

(١٢) المروة جمعها : مرو ، وهى الحجارة البيض الصغيرة ملء الكف يقدح منها النار ، والصفا : الصخرة العريضة ، والمشرق : المصلى .

صخب الشوارب ، يشبه فى قوته عبد لآل أبى ربيعة ، قد أهمل مع السباع فصار كأنه سبع لخبثه وقوته ، أو هو عبد قوى شديد الصوت ، قد وقع السباع فى غنمه فأخذ يصيح ، ذلك الحمار قوى يشبه هذا العبد ، ويكثر من النهيق « صخب الشوارب » ومعه أتان أربع قد طاوعته ، وهى طويلة (سمحج) مثل القناة ، وقد أكل النبت الذى كثر فصار كأنه جمة (أكل الجميم) فصار نشيطا ، حيث (أزعلته الأمرع) أى : جعلته نشيطا قويا .

وقر الماء فى قيعان فى ذلك المكان ، حيث نزل وابل فاثجم وثبت ولم يقلع ، وأخذت الأتان تمرح فى هذا الروض ، ويعض بعضها بعضا ، وتجرى هنا وهناك ، كل ذلك من فرط النشاط .

وبعد حين جزرت مياه رزونه ، أى : غارت مياه المطر من أماكنها ، فأخذ الحمار يتذكر العيون القديمة ، التى كان يردها قبل نزول الوابل وتجمعه فى هذا المكان ، الذى رتع فيه مع أتانه زمنا ، انتهى زمن الرخاء بغور الماء ، وحل شقاء الحمار مع أتانه ، فشاقى أمره شؤم ، وأقبل حينه يتتبع ..

واستمر أبو ذؤيب يصف شقاء الحمار مع أتانه ، وهو يبحث عن عيون الماء القديمة ، وأبدع فى تصوير ذلك أيما إبداع ، حتى صور هلاك الحمار وأتانه على يد قانص متلبب ، أبدهن حتوفهن ، وانتقل إلى الثور ، ثم إلى البطل المقنع ، المستشعر حلق الحديد ، وهو يهدف من وراء وصف هذه الأجناس ، وتصوير ما حدث لها ، تسلية النفس ، وحثها على الصبر عند الشدائد ، فإن الدهر لا يبقى على حدثانه أحد ..

* * *

- ٢ -

من قصيدة عبدة بن الطبيب ينصح أبناءه :

أبنى إنى قد كبرت ورابنى
بصرى وفى لمصلح مستمتع
فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا
تبقى لكم منها مآثر أربع
ذكر إذا ذكر الكرام يزينكم
ووراثة الحسب المقدم تنفع
ومقام أيام لهن فضيلة
عند الحفيظة والمجامع تجمع
ولهى من الكسب الذى يغنيكم
يوما إذا احتضر النفوس المطمع
ونصيحة فى الصدر صادرة لكم
مادمت أبصر فى الرجال واسمع
أوصيكم بتقى الإله فإنه
يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم وطاعة أمره
إن الأبر من البنين الأطوع
إن الكبير إذا عصاه أهله
ضاقت يداه بامره ما يصنع
ودعوا الضغينة لا تكن من شانكم
إن الضغائن للقرابة توضع
واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم
متنصحا ذاك السمام المنتقع

يزجى عقاربه ليبعث بينكم
حربا كما بعث العروق الأخدع

حران لا يشفى غليل فؤاده
عسل بماء فى الإناء مشعشع

لا تأمنوا قوما يشب صبيهم
بين القوابل بالعداوة ينشع

فضلت عداوتهم على احلامهم
وابت ضباب صدورهم لا تنزع

قوم إذا دمس الظلام عليهم
حدجوا قنافذ بالنميمة تمزع

أمثال زيد حين أفسد رهطه
حتى تشتت أمرهم فتصدعوا

إن الذين ترونهم إخوانكم
يشفى غليه صدورهم ان تصرعوا

* * *

عبدة بن الطبيب شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام فأسلم ، وكان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة ، ويرى تركه مروءة وشرفا، وهو صاحب أرثى بيت قالته العرب ، ألا وهو :

وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

والبيت من قصيدة له فى رثاء قيس بن عاصم المنقرى التميمى، قال أبو عمرو بن العلاء : هذا البيت أرثى بيت قيل ، وقال ابن الأعرابى : هو قائم بنفسه ماله نظير فى الجاهلية ولا فى الإسلام(١٣) ..

---

(١٣) انظر المفضليات ١٣٤ .

تقدمت به العمر ، وأصابه الكبر ، ووجه إليهم تلك النصائح التى اشتملت عليها أبيات القصيدة ..

وقد بدأ قصيدته بنداء الأبناء :

أبنى إنى قد كبرت ورابنى

بصرى وفى لمصلح مستمتع

والنداء تنبيه وإيقاظ ، ثم أضافهم إليه (بنى) وتلك الإضافة تنبىء بحبه وعطفه ، ثم ذكر ما يضاعف من الانتباه ، ويزيد من الإيقاظ (إنى قد كبرت ، ورابنى بصرى) يقال : رابه الشىء إذا تيقن منه الريبة ، وأرابه إذا شك فيه ، فعبدة قد تيقن الريبة ، وظهر ضعف بصره ، ووهن عظمه ، وقوى رأيه ، حيث أصقلته التجارب ، ولذا هتف معلنا : (وفى لمصلح مستمتع) ..

ومراد عبدة من هذا الإيقاظ أن يهيىء الأبناء لتلقى ما سيسديه إليهم من نصائح ، ولم يكتف بما ذكره من تنبيه فى البيت الأول ، بل أكد بالقسم فى البيت الثانى :

فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا

تبقى لكم منها مآثر أربع

فاللام موطئة للقسم ، والمعنى : فوالله إن هلكت لقد بنيت مساعيا ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، وفى قوله : (بنيت مساعيا) استعارة مكنية ، حيث شبه المساعى بالبناء العظيم ثم حذف المشبه به ورمز له بلازمه وهو بنيت ، وأضاف هذا اللازم إلى المساعى تخييلا ، وهذا التخييل هو قرينة الاستعارة المكنية ، وقد سموه استعارة تخييلية ... ولا يخفى عليك أن هذا التصوير قد جسد المساعى ، وأبرزها فى معرض المشاهد المحس .. وتنكير (مساعيا) للدلالة على التعظيم والتفخيم ، فهى مساع عظيمة ، ولذا وصفها بالبقاء (تبقى

لكم) وكذا القول فى تنكير (مآثر) ثم ذكر العدد بعدها على طريقة (التوشيع) وهو نوع من أنواع الإطناب ، حيث يُذكر العدد مثنًى أو جمعًا[١] ثم يفسر ، كما فى قوله ـ ﷺ ـ « اثنتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

وقول ابن وهب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها

شمس الضحى وابو إسحاق والقمر

ففى ذكر العدد إبهام فسر ووضح بما بعده ، وللإيضاح بعد الإبهام أثر فى تمكين المعنى فى النفس ، إذ الإبهام يجعل النفس تتطلع وتشتاق إلى البيان والإيضاح ، وعندما يأتى الإيضاح والبيان بعد ذلك يتمكن فى النفس فضل تمكن ، ويستقر فى أعماقها ..

فعبدة يذكر انه بنى مساعيا تبقى لأبنائه ، منها مآثر أربع ، ثم فصل هذه المآثر الأربع فى الأبيات التالية :

ذكر إذا ذكر الكرام يزينكم

ووراثة الحسب المقدم تنفع

ومقام ايام لهن فضيلة

عند الحفيظة والمجامع تجمع

ولهى من الكسب الذى يغنيكم

يوما إذا احتضر النفوس المطمع

ونصيحة فى الصدر صادرة لكم

مادمت ابصر فى الرجال وأسمع(١٤)

---

(١٤) الذكر : الشرف والصيت ، والمقام بفتح الميم : القيام بالصلح فى الخصومة ، أو القيام فى الخطبة ، أو القيام بقضاء حوائج

=

تنكيـر (ذكـر ، ومقـام أيـام ، ونصيحـة) يـدل على التعظم ، أمـا تنكيـر (لـهى) فـأرى أنـه للدلالة على التحقيـر والتقليـل ، ولـذا وصـف الذكـر بقـوله (يزينـكم إذا ذكـر الكـرام) ووصـف (مقـام أيام) بقـوله : (لهـن فضـيلة عنـد الحفيظـة) ووصـف النصيحة بانهـا فى الصـدر ، وأمـا اللهى فقـد وصفها بقـوله (من الكسـب الذى يغنيـكم يومـا) وهـذا ينبىء بمـا كـان عليـه عبـدة من إيمـان وخـلق ، وحـرص على كسـب الفضائل ، وتـرك الرذائل ، ولـذا ترفـع عن الهجـاء ـ كمـا ذكـرنا ـ ولـم يخفـل بجمع المـال ، وإنمـا حصـل منـه (لـهى) تغنى عند الطمـع وتغيـر النـاس ..

ولـذا أيضـا صـور الطمـع فى صـورة قبيحـة كريهة مخيفـة ، ينبغى أن تقـاوم وتحـارب ، فقـد صـوره عـدوا أحـاط بالنفـوس وحاصرهـا وعلى النفـوس أن تقـاومه وتحـاربه ، ففى قـوله (احتصر النفـوس المطمـع) استعـارة مكنيـة ، حيث شبـه الطمـع بعـدو قـد حـاصر النفـوس وأحـاط بهـا ، ثم حـذف المشـبه بـه وهـو (العدو) ورمـز لـه بلازم من لوازمه وهـو (حصـر) وأثبت هـذا اللازم للمشبه (المطمـع) على سـبيل الاستعارة التخييلية ، وهـذه التخييلية هى قرينـة الاستعارة المكنيـة ..

وبعــد التوشيع الذى اختتمـه عبـدة بقـوله : (ونصـيحة فى الصـدر) أخـذ يوصيهم ، ويسـدى إليهـم نصـائحه ، فأوصاهم بتقوى الله ، وببـر والدهـم وطـاعة أمـره ، وبصـلة القـرابة ، والتخـلى

=

النـاس ونحـو ذلك ، والحفيظة : الغضـب ، واللهى : بضـم اللام : العطايا ، مفردها : لهـوة ، وأصلها : الحفنة من الطعام تطـرح فى الرحى ، والمـراد بهـا : ما خلفه لهـم من مـال ، واحتصر النفوس المطمـع : أحاط بهـا ..

عن الضغينة لأنها سرعان ما تتفشى وتنتشر بين القرابة ، وعندئذ تضعها ، وتضع معها الود والحب والنفع وغير ذلك مما يكون بين القرابة ، ثم حذرهم من العدو الذى يتظاهر بالنصح ويخفى عداوته ..

ومما يلاحظ أنه قد أطال فى تحذيره من العدو المتنصح ، الذى يتظاهر بالنصح ، وأوجز إيجازا فيما قبله ، ولعل ذلك يرجع إلى أن عبدة قد أحسن تربية أبنائه ونشأهم على مبادىء الدين وخلق الإسلام ، فهم يتقون الله ويبرون الوالدين ، ويصلون الرحم ، ولا يحتاجون فى مثل هذا إلا إلى مجرد التذكير ، أما العدو الذى يزجى النمائم والعقارب ، ويتظاهر بالنصح ، فهذا ما يحتاجون إلى التحذير منه ، والكشف عن خداعه وأضراره ولذا أطال عبدة فى وصفه لهم ، وتصوير ضرره ، والكشف عن مكره وخداعه ..

ولنتأمل الأبيات :

واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم
متنصحا ذاك السمام المنقع
يزجى عقاربه ليبعث بينكم
حربا كما بعث العروق الأخدع
حران لا يشفى غليل فؤاده
عسل بماء فى الإناء مشعشع(١٥)

---

(١٥) يزجى : يسوق ، والمتنصح : الذى يتشبه بالنصحاء ، والسمام : مفردها سم ، والمنقع : المعتق من قولهم : أنقع السم : عتقه ، والأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق . والغلة : شدة العطش ، والمراد : الذى يتلهب جوفه من شدة الغيظ ، والمشعشع : الممزوج ..

فذاك المتنصح يزجى النمائم ، ويزجى عقاربه ، ويبعث الحرب بينكم والعداوة كما يبعث الأخدع العروق ، وهو السم المنقع ، قد امتلأ فؤاده غيظا ، فهو حران لا يشفى غليل فؤاده إلا أن تشتعل نار العداوة بينكم ..

الصور البيانية قد ازدحمت فى الأبيات لتبرز حقيقة ذلك المتنصح وتكشف عن ضرره ، ففى قوله : « يزجى النمائم ... يزجى عقاربه » استعارتان مكنيتان ، حيث شبهت النمائم والعقارب بما يزجى ، ثم حذف المشبه به ، وأسند لازمه للمشبه ، والاستعارتان تكشفان عن حقيقة المتنصح ، فهو يسوق إليهم ، وليت ما يسوقه خير أو نفع ، كلا إنه يسوق أذى ، يسوق نمائم وعقارب تبعث بينهم العداوة والبغضاء .

وفى قوله : « ذاك السمام ... ليبعث بينكم حربا كما بعث العروق الأخدع » تشبيهان ، الأول تشبيه بليغ ، حذفت أداته ووجهه ، حيث شبه المتنصح بالسم المنقع فى الإهلاك والضر . والثانى تشبيه مركب ، حيث شبهت هيئة المتنصح ، وهو يسوق عقاربه ونمائمه ليبعث بينهم الحرب والعداوة ، بهيئة الأخدع عندما يضرب فتستجيب له سائر العروق ..

ويستمر عبدة فى وصف أولئك المتنصحين فيذكر أنهم شبوا على العداوة وسقوا إياها منذ أن استقبلتهم القوابل ، حيث وضع السعوط فى أنوفهم ، والوجور فى أفواههم ، فنشأوا على العداوة ، وزادت عداوتهم على أحلامهم ، وتأصل الحقد فى صدورهم ، وهذا ما نراه فى قوله :

لا تأمنوا قوما يشب صبيهم
بين القوابل بالعداوة ينشع

فضلت عداوتهم على أحلامهم
وأبت ضباب صدورهم لا تنزع(١٦)

فالبيت الأول كناية عن تنشئتهم على العداوة ، والثانى كناية عن تأصل الأحقاد فى صدورهم ، فهى لا تنتزع .. وقد استعيرت الضباب للأحقاد التى تملأ صدورهم ، وتدل هذه الاستعارة على تغلغل الأحقاد وتشعبها فى الصدور ، وصعوبة انتزاعها منها ، كما يصعب صيد الضب والتمكن منه فى جحره ..

وهم لا ينامون ليلهم ، بل إذا حل الظلام نشطوا بالنميمة ، فهم :

قوم إذا دمس الظلام عليهم
حدجوا قنافذ بالنميمة تمزع

أمثال زيد حين أفسد رهطه
حتى تشتت أمرهم فتصدعوا(١٧)

---

(١٦) القوابل : مفردها قابلة ، وهى التى تستقبل المولود ، وينشع من النشوع : ويقال له أيضا : نشوغ ، وهو السعوط الذى يوضع فى الأنف ، والوجور : ما يوضع فى الفم . يقال : ينشع الصبى والمريض ويوجران أى : يوضع السعوط فى أنفهما ، والوجور فى فمهما ، ويقال فلان منشوع بكذا أى : مولع به ، كأنه قد ربى عليه .
وفضلت بكسر الضاد : زادت ، والضباب بكسر الضاد مفردها: ضب ، والمراد بها : الأحقاد فى صدورهم ..

(١٧) دمس الظلام : ألبس واشتدت ظلمته ، وحدجوا : وضعوا الحدج - بكسر الحاء وسكون الدال - على البعير كى يرحلوا ، والحدج: مركب من مراكب النساء ، وتمزع : تمر مرورا سريعا ، يقال : مزع الفرس مزعا إذا أسرع .

والمراد بزيد : زيد بن مالك بن حنظلة بن مالك الأكبر ، وكان المنذر قد خطب لرجل من أصحابه باليمن امرأة من بنى زيد ، فأبوا أن يزوجوه ، فنفاهم وفرقهم ..

شبههم بالقنافذ عندما يشتد الظلام عليهم ، فهم لا ينامون ، بل يسهرون بالنميمة والاحتيال للشر ، وكذلك القنفذ يظل ليله أجمع يسير ولا ينام ، ومراد عبدة من التشبيه بزيد فى البيت الثانى أن يحث أبناءه على الاستجابة وقبول النصيحة ، والتيقظ والتنبه لما يدبره أعداؤهم من الأذى والشر ، فهو يريد أن يقول : إن ما أخبركم به حق وصدق ، وخبر يقين ، كصدق هذه القصة ، قصة زيد ورهطه ، وأنتم تعلمونها ..

أو يريد : لا ترفضوا نصيحتى ، وتنصرفوا عنها ، وتغفلوا عما يدبره الأعداء لكم ، فتكونوا فى الحمق والجهل مثل هذا الرجل الذى بدد قومه ..

أو يريد : لا تأمنوا عدوكم وتغتروا وتخدعوا بما يقوله لكم ، ويدعيه من النصح ، فتغفلوا عن مكامنه ، وما يدبره لكم فى الخفاء : حتى يبدد شملكم ويفرقكم ، كما فرق بنو زيد ..

ويختتم عبدة نصائحه بقوله :

إن الذين ترونهم إخوانكم
يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

ينبههم إلى الخطأ ، فإن الذين يعتقدون أنهم إخوان لهم ، ماهم إلا أعداء تتوقد صدورهم حقدا ، ولا يشفى غليل صدورهم إلا أن يصرعوا ويهلكوا ، ولذا عبر بالاسم الموصول لتنبه جملة الصلة إلى خطأ المخاطبين فيما يرونه ، ومثله قول الله عز وجل : « **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** »(١٨) فإن جملة الصلة (تدعون من دون الله) تفيد تنبيه المشركين إلى خطئهم فى عبادتهم غير الله تعالى ، فهم ليسوا إلا عبادا أمثالهم ..

---

(١٨) الأعراف : ١٩٤ .

هـذا ونجـد فى الأبيـات العـديد من الكنايات اللطيفـة ، ففى البيت الأول قـوله : (إنى قد كبرت ورابنى بصـرى) كناية عن الضعف والوهـن ، وقـوله : (وفى لمصـلح مسـتمتع) كنـاية عن سداد نصحه وقـــوة رأيـــه .

وفى البيت الرابـع قـوله : (والمجـامع تجمـع) كنـاية عـن شـدة الأمـر ، وفداحـة الخطب ، وفى البيت التاسـع قـوله : (ضاقت يـداه بامـره) كنـاية عن عجـزه وانسـداد السـبل أمـامه ..

وفى البيت الرابـع عشر قـوله : (يشـب صـبيهم بين القـوابل بالعداوة ينشع) كناية عن التنشئة على العـداوة والبغضـاء ، وفى البيت الخامس عشر قـوله : (وابت ضـباب صدورهم لا تنـزع) كنـاية عن تاصـل الحقـد فى صـدورهم ..

★ ★ ★

(٣)

قال الشنفرى الأزدى فى الغزل ووصف المـرأة :

ألا أم عمــــرو أجمعـت فاستقلـت
وما ودعـت جيـرانهــا إذ تولـت
وقد سبقنـا أم عمــــرو بأمــرها
وكانت بأعنــــاق المطى أظلــت
بعينى مـا أمســت فباتت فأصبحت
فقضـت أمـــورا فاستقلـت فـولت
فوا كبـدا على أميمــــة بعـــد ما
طمعـت فهبهــا نعمـة العيش زلت
فيا جــارتى وأنت غـير مليمــــة
إذا ذكـــرت ولا بـــذات تقلـت
لقـد أعجبتنى لا سقــوطا قناعهــا
إذا ما مشـــت ولا بـذات تلفــت
تبيت بعيـد النــوم تهـدى غبـوقها
لجـارتهـــا إذا الهـــدية قلـت
تحـــل بمنجــا ة من الـلوم بيتهــا
إذا مـا بيــوت بالمذمــــة حلـت
كأن لهــا فى الأرض نسيا تقصـــه
على أمهـــا وإن تكلمـــك تبلـت
أميمـــة لا يخـــزى نثاهـــا حليلها
إذا ذكـــر النســوان عفـت وجلـت
إذا هــو أمسي آب قـــرة عينــه
مآب السعيـد لم يسـيـل أين ظلـت

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت
فلو جن إنسان من الحسن جنت

فبتنا كأن البيت حجر فوقنا
بريحانة ريحت عشاء وطلت

بريحانة من بطن حلية نورت
لها أرج ما حولها غير مسنت

* * *

الشنفرى شاعر جاهلى من بنى الحرث بن ربيعة ، والشنفرى اسمه ، وقيل : لقب له ، ومعناه عظيم الشفة ، وهو ابن أخت تأبط شرا ، وكان أحد لصوص العرب المغيرين ، وأحد العدائين الثلاثة : تأبط شرا والشنفرى وعمرو بن براق ، كانوا من العدائين الذين يعدون على أرجلهم ، فلا يدركهم الطلب ، ولا تلحقهم الخيل ، وقد ضرب المثل بالشنفرى فى العدو فقيل : « أعدى من الشنفرى »(١) .

وهذه الأبيات من قصيدة له ، بدأها بالغزل والحديث عن المرأة وهى الأبيات التى بين أيدينا ، ثم أتبعها بوصف قوته وشدة بأسه ، ونعت سيفه ، وأشار إلى ثأره من قتل أبيه ، وفخر باستهانته بالحياة ، إلى آخر ما ذكر فى تلك القصيدة(٢) .

وقد أبدع الشنفرى فى حديثه عن المرأة فى هذه الأبيات ، والتنويه بمحاسنها ، والإشادة بأخلاقها ، وتسامى فى غزله ، فلم يهبط إلى

---

(١) انظر المفضليات : ٢٧، ١٠٨ .
(٢) ارجع إلى القصيدة كاملة فى المفضليات : ١٠٨ .

ذكر الصفات الحسية فى المرأة ، والكشف عن مفاتنها ، على نحو ما رأينا فى كثير من الشعر الجاهلى ، بل ترفع عن ذلك ، واهتم بإبراز الصفات المعنوية كالحياء والعفة ، وإيجاز الحديث ، وكرمها لجاراتها ، ونفى الريبة عنها ، فإن أراد ذكر وصف من أوصافها الحسية أومأ إليه إيماء ، على نحو ما سنرى فى الأبيات ..

بدأ الشنفرى قصيدته بالتنويه بشأن أميمة ، فلم يذكرها باسمها بل بكنيتها (أم عمرو) وذلك تعظيما لها ، ورفعا من شأنها ، كما افتتح القصيدة بأداة التنبيه (ألا) وهى لا تستخدم إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تنبيه وتوكيد ..

ثم أشاد بصفة محمودة فى المرأة ، وهى الكتمان وإخفاء شئونها بحيث لا يدرى بها أحد ، بل يفاجأ بها مفاجأة :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت
وما ودعت جيرانها إذ تولت
وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها
وكانت بأعناق المطى أظلت(٣)

فقد أجمعت أمرها ، وتولت مرتحلة ، وما ودعت جيرانها ، ولا أطلعت أحدا على ما عزمت عليه ، بل استبدت واستأثرت به ، حتى كان رحيلها مفاجأة للجميع ، ولم يدر به أحد حتى أظلتهم بالإبل راحلة .

وفى قوله : (بأعناق المطى) مجاز مرسل علاقته الجزئية .

---

(٣) أجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت ، وسبقتنا بأمرها : استبدت واستأثرت به ، وكانت بأعناق المطى أظلت ، أى : فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها ..

حيث أطلق (الأعناق) وأراد : الإبل ، وإنما آثر التعبير عن الإبل بالأعناق ، لأنها مظهر حركتها ، فالإبل عندما تسرع فى السير تظهر حركتها تمام الظهور فى أعناقها ، ولذا قال كثير عزة فى وصف حركة الإبل عندما اشتد بها السير فى الصحراء :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولم يبصر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

فالمطى قد اشتد بها السير ، وسالت بها الأباطح ، وقد آثر كثير التعبير (بالأعناق) حيث تظهر بها حركة الإبل عند إسراعها ظهورا تاما ، ولا يخفى عليك المجاز فى كلمة (سالت) حيث استعير السيلات للسير ، كما لا يخفى عليك التجوز فى إسناد السيلان إلى الأباطح (٤)

ويصف الشنفرى أسفه وتألمه لسرعة رحيلها ، فيقول :

بعينى ما أمست فباتت فأصبحت
فقضت أمورا فاستقلت فولت

فوا كبدا على أميمة بعد ما
طمعت فهبها نعمة العيش زلت

فيا جارتى وانت غير مليمة
إذا ذكرت ولا بذات تقلت (٥)

---

(٤) ارجع إلى هذه الأبيات فى كتابنا : دراسات بلاغية ٢٥ .

(٥) بعينى : يأسف أن يرى رحيلها ولا حيلة له ، وزلت : ذهبت ، من قولهم : زل عمره ، أى : ذهب ، ومليمة من قولهم : ألام ، إذا أتى بما يلام عليه ، وتقلت : تبغضت ، والمعنى : ليست بذات صفة يقال لها من أجلها : تقلت فلانة ، أى : تبغضت .

فقوله (بعينى) يدل على مبلغ أساه وشدة ألمه ، وقد صور سرعة رحيلها وتوليها تصويرا عجيبا (أمست فباتت فأصبحت فقضت أمورا فاستقلت فولت) توالت الأحداث كلمح البصر ، فتلك الفاءات ، وهذه الأفعال : أمسى ، بات ، أصبح ، قضى أمورا ، استقل ، تولى ، تشعر بالسرعة الخاطفة ، وتدل على مدى قصر الزمن الذى رحلت خلاله أميمة .

وقد أخذت معها قلب الشنفرى ، فهو حزين متألم (فوا كبدا على أميمة) ، هذا التعبير يدل على حرقة قلبه ، وشدة ألمه ، ومثله قول المتنبى :

وا حــر قلبــاه ممن قلبــه شبم

ومن بجسمى وحــالى عنـده سقم

ويسمى هذا أسلوب الندبة ، وهو أن ينادى من أجل التوجع أو التفجع ، ولا يجد الشنفرى أمامه إلا أن يصبر ويتصبر (فهبها نعمة العيش زلت) ، ثم يناديها (يا جارتى) وكأن استخدام هذا الحرف (يا) الموضوع لنداء البعيد يؤذن بارتحالها وابتعادها عنه ، وعلى الرغم من بعدها عنه ، فإنها قريبة إليه ، محببة إلى نفسه ، ولذا أضافها إليه فى قوله : (يا جارتى) ثم وصفها بهذين الوصفين : (غير مليمة ... ولا بذات تقلت) ، فهى لا تأتى بما يلام عليه ، ولا يبغضها أحد ، لأنها لا تتصف إلا بكريم الصفات ، ولا تأتى عيبا ، ومن أجل ذلك حببت إلى النفوس ، فلم يبغضها أحد ..

ثم يزجى إليها فيضا من الكنايات التى تكشف عن أخلاقها ، وعظيم فعالها ، وذلك حيث يقول :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها

إذا ما مشت ولا بذات تلفت

تبيـت بعيـد النـوم تهـدى غبوقهـا

لجـارتهـــا إذا الهـــــدية قلـت

تحـل بمنجـاة من الـلوم بيتهـا

إذا ما بيـوت بالمذمـة حلـت(٦)

كنى عن شدة حيائهـا بقوله : (لا سقوطا قناعها) ، فهى عندما تمشى لا يسقط قناعها ، وهـذا يدل على شدة الحيـاء ، ثم كنى عن نفى الريبـة عنهـا بقـوله : (ولا بذات تلفت) لأن التلفت من فعـل أهـل الريبـة ، وكنى فى البيت الثـانى بقوله : (تبيت بعيد النـوم تهـدى غبوقها) عن الأثرة والكرم ، فهى تهـدى الغبـوق لجاراتها وتؤثرهن به على نفسها لشـدة كـرمها ، وقـوله : (إذا الهـدية قلت) كناية عن الجدب ، حيث تنفد الأزواد ، وتذهب الألبـان ، وفى هـذا الوقت تهدى أميمـة غبوقها ليـلا لجاراتها ، وذا يدل على كمال الكـرم والأثرة ..

وفى البيت الثالث أربع كنايات ، اثنتان عن صفة ، واثنتـان عن نسبة ، فقد كنى عن صفة العفـة بالنجـاة من الـلوم ، إذ النجـاة من اللوم تستلزم النجـاة من موجباته كالزنا والفواحش وذا يستلزم العفة ، وكنى عن نسبة العفـة إليهـا بنسبتها إلى بيتها فى قوله : (تحل بمنجاة من اللوم بيتهـا) ، ثم كنى فى الشطر الثـانى عن نفى العفـة بحلول المذمـة ، وعن نفى العفـة عن أصـحاب تلك البيوت بنفيها عن بيوتهم (إذا ما بيوت بالمذمـة حلت) ..

---

(٦) الغبوق بفتح العين : اللبن الذى يشرب بالعشى ، والفعـل (تحل) بفتح التـاء وضم الحـاء مضـارع (حـل) ، وهو متعد بنفسه و (بيتها) مفعول به ، ويتعدى بالحـرف فيقال : تحل فى بيتها ، وبالهمـزة فيقال : (تحـل) بضم التـاء وكسر الحاء ، وقد روى البيت : يبيت بمنجـاة من اللوم بيتهـا ، يرفع البيت على الفاعلية تجـوزا فى الإسناد ..

ويضيف الشنفرى :

كأن لها فى الأرض نِسْيا تقصه
على أمِّها وإن تكلمك تَبْلَتِ
أميمة لا يخزى نَثَاها حليلَها
إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى آب قرة عينه
مآب السعيد لم يسل أين ظلت(٧)

يصور شدة حيائها ، وأنها لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، فيشبهها فى ذلك بمن افتقد شيئا فهو يتبعه ويتعقب أثره ، وينظر فى الأرض بحثا عنه ، ثم يكنى عن إيجازها الحديث بقوله : (وإن تكلمك تبلت) ، والتعبير بإن يدل على ندرة تكلمها ، فهى شديدة الحياء ، إذا مشت لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، حتى ليظن من يراها أنها تبحث عن شىء ضاع منها ، وإن اعترضها شخص وكلمها ، أوجزت الحديث إيجازا ، ومضت لقصدها وغرضها ..

ثم كنى عن سمعتها الطيبة ، وسيرتها الحسنة على كل لسان بقوله : (لا يخزى نثاها حليلها) ، فحديثها العطر على كل لسان فى العشيرة يملأ زوجها زهوا وفخرا ، ويجعله سعيدا قرير العين ، لأنها مثال العفة والجلال ، (إذا ذكر النسوان عفت وجلت) ،

---

(٧) النسى بكسر النون : الشىء المفقود المنسى ، وتقصه : تتبعه وتتعقب أثره ، وأمها بتشديد الميم : قصدها الذى تريده ، وتبلت بفتح التاء واللام : تنقطع فى كلامها لا تطيله ، والنثا بفتح النون : الحديث عن الشخص والإخبار عنه حسنا أو سيئا ، يقال : نثا الحديث والخبر أى : حدث به وأشاعه ، والحليل : الزوج ، وآب : رجع ..

ثم كنى عن ملازمتها وقرارها فى البيت بقوله : (لم يسل أين ظلت)
لأنها لا تبرح بيتها ولا تفارقه .

وبهذا يتضح لنا تسامى الشنفرى فى حديثه عن المرأة ، وترفعه عن الغزل الفاحش الذى يكشف عن مفاتنها ، لقد سما بها وعلا إلى أعلى درجات العفة والحسن وجمال الروح ، حتى قالوا : إن هذه الأبيات أحسن ما قيل فى خفر النساء وعفتهن ..

فلما أراد أن يتحدث عن جمالها الحسى أومأ وأشار ، ولم يهبط إلى إبراز مفاتن المرأة ، والكشف عن هذا الجانب الحسى فيها ، ولننظر فى البيت :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت
فلو جن إنسان من الحسن جنت(٨)

فهو يريد : دق منها ما يستحسن دقته وعظم ما يستحسن عظمه ، والذى يحسن أن يكون دقيقا وضامرا هو الخصر والبطن ، والذى يحسن أن يكون عظيما ضخما : الروادف والثدى ..

وفى هذا المعنى يقول الحماسى :

أبت الروادف والثدى لقمصها
مس الظهور وأن تمس بطونا

وقال ابو تمام :

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت
لها وشحا جالت عليها الخلاخل

---

(٨) اسبكرت : طالت وامتدت ، ومعنى (جن) : ذهب عقله أو استتر واختفى ، ويريد بذلك بلوغها الغاية فى الحسن والجمال ..

ويقول كعب بن زهير :

هيفــاء مقبـلة عجـــزاء مـــدبرة

لا يشتكى قصـــر منهــا ولا طـــول

ولكن الشنفرى أومــا إلى ذلك ولم يوضح ، وأوجـز الحديث عنه إيجازا (فدقلت وجلت واسكبرت واكملت) خلع عليها أسمى آيات الجمال الحسى دون أن يفصح عنه ، أو يبرزه فى صورة واضحة مكشوفة ..

ومعنى قـوله : (لو جن إنســان من الحسن جنت) أنهــا بلغت الغــاية فى الحسن والجمال ، ووصلت إلى حـد ينبغى فيــه الاستتــار وإخفــاء الحسن لكماله ، أو وصلت فيــه إلى حد لو جن إنسان لوصوله إليــه ، وذهب عقـله لشدة حسنه لجنت ، وهـذا يعنى بلوغها الغــاية وحد الكمال فى الجمال والحسن ..

ثم يصـور طيب رائحتها فيقول :

فبتنـــا كان البيت حجـــر فوقنـــا

بريحــــانة ريحـت عشـــــاء وطلت

بريحــــانة من بطن حَلْيـــة نـــورت

لهــا ارج ما حــولها غير مسنت(٩)

يشبه طيب رائحتها ويمثـله بريحانة ، هذه الريحانة أصـابتها ريح النسيم العليـل عشــاء ، واختــار وقت العشـــاء لأنه أظهــر لرائحــة الرياحين ، كما أصابها الندى فاشتدت رائحتها ، وهى ريحــانة من بطن حليــة ، ذلك الوادى الذى يوجد فىحـزن من الأرض ، ونبت الحـزن

---

(٩) حجـر فوقنا : أحيط وأغلق ، وريحت وطلت : أصابتها ريح النسيم العليـل وأصابها الطـل ، وحلية بفتح الحاء وسكون اللام : واد بتهـامة وهو فى حزن : أى أرض مرتفعة ، ونبت الحـزن أطيب ريحا من غيره ، والأرج : توهج الرائحة وانتشارها فى كل جانب ، والمسنت : المجـدب ..

أطيب رائحـــة من غيره ، ثم هى ريحـانة قد نورت ، وصـار لها أرج انتشـــر فى كل جانب ، وما حولهـا من الأرض خصب وغير مجدب ، والبيت قد حجـر فوقهم ، وأحكم غلقـه ، فتضاعفت الرائحة وتركزت ، وقويت واشتدت ..

ويريد الشنفرى بهـذا التفصيل ، أن يكشف لنا عن طيب رائحـة أميمـة ، وأنها قد بلغت فى طيب الرائحـة مبلغـا عظيما ، لم تبلغـه غيرها ، وبهذا يكون قد جمـع لها كل صنوف الحسن ، وألوان الجمال ، فقد وصفها بالأخـلاق الرفيعة ، كالحيـاء والعفة والكرم والسيرة الطيبة ، وأطال فى بيان ذلك وأبدع فى تصـويره وتجليته ، ثم أشـار إلى جمالها الحسى ، وأنها قـد بلغت فى ذلك الغـاية ، فلو جن إنسـان من الحسن جنت ، واختتم حديثه بالإفاضة فى تصوير طيب رائحتها ..

والحمد لله أولا وآخـرا وصلى الله على سيدنا ونبينـا محمـد وعلى آلـه وصحبه وسلم . تم بحمد الله تعـالى فى يوم الأربعاء ، الثانى عشر من شهر جمادى الآخـرة سنة ١٤١٢ هـ ، الموافق الثـامن عشر من شهـر ديسمبر سنة ١٩٩١ م .

المـؤلف
بسـيونى عبد الفتاح فيود
الأستاذ ~~المساعد~~ في جامعة الأزهر

أهم المراجع

١ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر : ط : دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢ هـ

٢ ـ الأصمعيات للأصمعى : ط : دار المعارف ـ ١٩٧٩ م .

٣ ـ الأم للإمام الشافعى ، ط : بولاق ـ ١٣٢١ هـ .

٤ ـ الإيضاح : للخطيب القزوينى ، ط : صبيح ، ١٣٩٢ هـ .

٥ ـ التصوير البيانى للدكتور محمد أبو موسى :
ط : دار التضامن ـ ١٩٨٠ م .

٦ ـ تفسير الطبرى لابن جرير الطبرى :
ط : دار المعارف ـ ١٩٦٩ م .

٧ ـ تفسير الفخر الرازى : للإمام محمد الرازى :
ط : دار الفكر ، ١٤٠١ هـ .

٨ ـ تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى :
ط : الحلبى ، ١٣٧٣ هـ .

٩ ـ الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا :
ط : منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٤ م .

١٠ ـ جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى :
ط : جامعة الإمام ، ١٤٠١ هـ .

١١ ـ خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى :
ط : دار التضامن ، ١٩٨٠ م .

١٢ ـ دراسات بلاغية للدكتور بسيونى فيود :
ط : السعادة ، ١٩٨٩ م .

١٣ ـ دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، ط : الفجالة ، ١٩٨٩ م .

١٤ ـ دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى :
ط : دار المعلم ، ١٣٩٩ هـ .

١٥ ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان :
ط : الريان ، ١٤٠٧ هـ .

١٦ ـ روح المعانى للألوسى :
ط : دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

١٧ ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي : ط : الخانجي .

١٨ - شرح أشعار الهذليين للسكرى : ط : المدنى .
١٩ - شروح التلخيص .
٢٠ - صحيح مسلم بشرح الإمام النووى :
ط : دار الكتب العلمية - بيروت .
٢١ - الصناعتين لأبى هلال العسكرى : ط : الحلبى ، ١٩٧١ م .
٢٢ - الطراز للعلوى ، ط : المقتطف ، ١٣٣٢ هـ .
٢٣ - علم البيان للدكتور بدوى طبانة ، ط : المطبعة الفنية ، ١٩٧٧ م .
٢٤ - علم البيان للدكتور بسيونى فيود : ط : السعادة ، ١٩٨٨ م .
٢٥ - علم المعانى للدكتور بسيونى فيود : ط : السعادة ، ١٩٨٧ م .
٢٦ - علم البديع للدكتور بسيونى فيود : ط : السعادة ، ١٩٨٧ م .
٢٧ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى
٢٨ - الكشاف للزمخشرى ، ط : الحلبى ، ١٣٩٨ هـ .
٢٩ - لسان العرب لابن منظور ، ط : دار المعارف .
٣٠ - المثل السائر لابن الاثير : ط : الحلبى .
٣١ - مجاز القرآن لأبى عبيدة ، ط : الخانجى .
٣٢ - المجازات النبوية للشريف الرضى : ط : الحلبى ، ١٣٥٦ هـ .
٣٣ - معانى القرآن للفراء ، ط : الهيئة المصرية ، ١٩٨٠ م .
٣٤ - المطول : لسعد الدين التفتازانى .
٣٥ - مغنى اللبيب لابن هشام : ط : المدنى .
٣٦ - مفتاح العلوم للسكاكى : ط : الحلبى ، ١٣٥٦ هـ .
٣٧ - المفضليات للضبى : ط : دار المعارف .
٣٨ - الموطأ لابن مالك : ط : الحلبى ، ١٣٧٠ هـ .
٣٩ - الموازنة للآمدى : ط : دار المعارف ، ١٣٨٠ هـ .
٤٠ - النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز :
ط : السعادة ، ١٣٨٩ هـ .
٤١ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى :
ط : الآداب ، ١٣١٧ هـ .
٤٢ - الوساطة بين المتنبى وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجانى :
ط : الحلبي .

محتويات الكتاب

كُتُب للمؤلف

١ ـ من هدى القرآن الكريم

تفسير بلاغى لسورة (المؤمنون)

٢ ـ علم المعانى الجزء الأول

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى

٣ ـ علم المعانى الجزء الثانى

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى

٤ ـ علم البيان

دراسة تحليلية لمسائل البيان

٥ ـ علم البديع الجزء الأول

دراسة تاريخية لأصول البلاغة

٦ ـ علم البديع الجزء الثانى

دراسة فنية لمسائل البديع

٧ ـ دراسات بلاغية

بحوث بلاغية متنوعة

٨ ـ بلاغة تطبيقية

دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٩١ / ٩٢٤٨